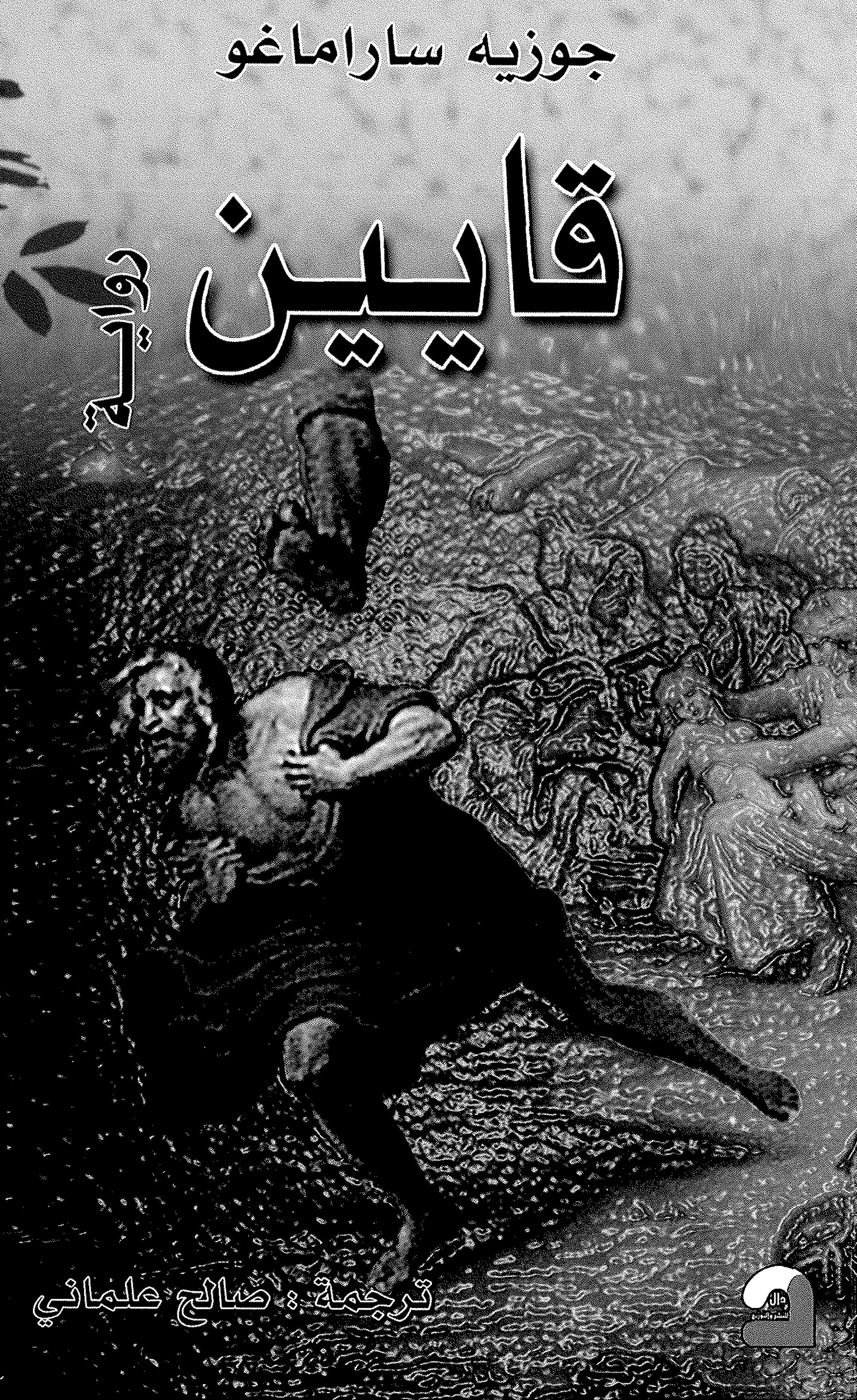

جوزيه ساراماغو
قايين
رواية
ترجمة: صالح علماني

قــايـين



جوزيه ساراماغو

قايين

ترجمة: صالح علماني

■ جوزيه ساراماغو
■ قايين
■ ترجمة : صالح علماني

■ الطبعة الأولى 2011
■ الإخراج الضوئي: هالا خليل
■ الناشـــر: دال للنشـــر والتوزيـــع
سـورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هـاتـف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

إلى بيلار، كمن يقول ماء

وقدم هابيل للرب، بالإيمان، قرباناً أفضل من قايين. وبالإيمان، حين تلقى الرب نفسه أعطياته، شهد له أنه بار. ومن أجل ذلك مازال الحديث مذ ذاك عن ميت.

سفر العبرانيين، 11، 4

كتاب البلاهات



1

عنـدما انتبـه **السـيد**، وهـو يـدعى «الإلـه» أيضـاً، إلى أن آدم وحواء، الكاملين في كل ما يظهر للعيـان، لا تخـرج مـن فميهمـا كلمة واحدة ولا يصدر عنهما أي صـوت، مهمـا كـان بـدائياً، لم يجد مفراً من أن يغضب من نفسـه بالـذات، إذ لم يكـن في جنـة عدن أحد سواه يحمّله مسؤولية الخطأ الجسيم، بينما الحيوانات الأخرى، وهي كلها، مثل البشـريين الاثـنين، حصـيلة الصـنيع الإلهـي، تمتلـك أصـواتها الخاصـة، بعضـها بـالزئير والجعـير، وأخـرى بـالزمجرات والنعيـب، أو الصـفير والقوقـأة. وفي سـورة غضب، وهو غضب مفاجئ في من هو قادر علـى حـلّ كـل شـيء بحركة «كن» مباركة أخرى سريعة، ركـض نحـو الثنـائي، ودون ترو، دون تدابير غـير مجديـة، دس اللسـان في أحـدهما، ثـم في الآخر، عميقاً في الحلق. وفي الكتابـات الـتي راحـت تُـودع فيهـا بصـورة عرضـية إلى هـذا الحـد أو ذاك، علـى امتـداد الأزمنـة، أحداث تلك الحقب البعيـدة، سـواء الأحـداث محتملـة الإثبـات

قانونياً في المستقبل أو تلك التي هي ثمرة تخيلات منتحلة أو هرطوقية لا تقويم لها، لم تتضح الشكوك حول حقيقة اللسان المشار إليه، أهو العضلة المرنة والرطبة التي تتحرك وتتحرك في التجويف الفموي وخارجه أحياناً، أم أنه كلام اللغة، المسمى لساناً أيضاً، وهو أمر تجاهله السيد للأسف ونجهل نحن ما كان المقصود بالضبط، ذلك أنه لم يبق أدنى أثر منه، ولو مجرد قلب منقوش على لحاء شجرة مع كتابة عاطفية من قبيل **أحبك يا حواء**. ولأن لا شيء، في البدء، يمضي دون شيء آخر، فمن المحتمل أن سبباً مختلفاً كان وراء الدفع العنيف الذي دفع به السيد لساني ابنيه الأبكمين، يتمثل في وضعهما على تواصل مع أعمق أعماق دخيلة الكائن الجسدي، المدعوة حالات قلق الكائن، كيما يتمكن، في المستقبل، وبشيء من معرفة السبب، من التكلم عن تشوشه الغامض والمتاهي الذي كان قد بدأ يطل من نافذته، من فمه. كل شيء ممكن. وكما هو منطقي، وبسبب وساوس الصانع الجيد التي تمنحه الأفضلية وحدها، فضلاً عن التعويض عن الإهمال السابق بالتواضع الواجب، أراد السيد التأكد من أن خطأه قد أُصلح، فسأل آدم، أنت، ما اسمكَ، فردّ عليه الرجل، أنا آدم، ابنك البكر أيها السيد. ثم توجه الخالق إلى المرأة، وأنتِ، ما اسمكِ أنت، أنا حواء يا سيدي، إنني السيدة الأولى، أجابت دون حاجة إلى تلك الإضافة، لأنه لم تكن

هناك امرأة أخرى سواها. أبدى الرب رضاه، وودعهما بتحية «إلى اللقاء» أبوية، وانصرف إلى حياته. عندئذ قال آدم لحواء أول مرة، هلي بنا إلى الفراش.

سيث، ابن الأسرة الثالث، لن يأتي إلى الدنيا إلا بعد مئة وثلاثين سنة من ذلك، ليس لأن حَبَل الأمومة يحتاج إلى كل ذلك الوقت لإنجاز صناعة الابن الجديد، وإنما لأن الأجهزة التناسلية عند الأب والأم، أي الخصيتين والرحم على التوالي، احتاجت لأكثر من قرن كي تُطور وسائط إنجاب تتمتع بالقوة اللازمة. ولا بد من القول لغير الصبورين إن بركة «كن» قد حدثت مرة واحدة فقط ولم تتكرر، وإن الرجل والمرأة ليسا آلة لحشو السجق، وإن الهرمونات شيء معقد، لا تُنتَج بحركة ذهاب وإياب، ولا تتوافر في الصيدليات ومحلات السوبر ماركت، وإنه لا بد من منح وقت للوقت. وقبل سيث، جاء إلى الدنيا قايين أولاً وبعده هابيل، بفارق ضئيل في السن بينهما. وهناك أمر لا يمكن تركه دون إشارة فورية إليه، ألا وهو الضجر العميق الذي تفترضه كل تلك السنوات بلا جيران، وبلا تسليات، وبلا طفل يحبو بين المطبخ والصالة، ودون أي زائرين آخرين سوى السيد، وحتى تلك الزيارات القليلة والمقتضبة، كانت تفصل بينها فترات غياب تدوم عشرة أعوام، أو خمسة عشر، أو عشرين، أو خمسين عاماً، فتصوروا القليل المتبقي كي

يرى ساكنا الفردوس الأرضيّ نفسيهما أشبه بيتيمين بائسين ومهجورين في غابة الكون الفسيح، بالرغم من أنهما ما كانا قادرين على تفسير ما يعنيه يتامى ومهجورين. ولكن الصحيح أنه في يوم نعم ويوم لا، مع أن هذا التواتر غير دقيق أيضاً، كان آدم يقول لحواء، **هلمي** بنا إلى الفراش، غير أنه تبين آنذاك أن الروتين الزوجي، وهو مستشرٍ في حالة هذين الإثنين، وبسبب انعدام تنوع في الوضعيات يُعزى إلى قلة الخبرة، لا يقل تدميراً عن جائحة سوس خشب يقرض دعائم سقف البيت. فمن الخارج، وباستثناء بعض أكوام الغبار الصغيرة الآخذة بالتساقط هنا وهناك من خلال ثقوب دقيقة جداً، يكاد التعدي لا يكون ملحوظاً، ولكن المخفي في الداخل كان شيئاً آخر، إذ لم يبق إلا القليل لينهار ما كان يبدو شديد الثبات من قبل. وفي مثل هذه الأحوال سيكون هناك من يدافع عن أنه يمكن أن تكون لولادة طفل مفاعيل منشطة، إن لم يكن لليبيدو والشهوة، وهذه حصيلة أمور كيميائية أشد تعقيداً من تعلم تبديل بعض الحفاضات، فعلى الأقل للمشاعر، وهذا ليس مكسباً بسيطاً، كما هو معترف به منذ الأزل. أما بشأن السيد وزياراته المتباعدة، فإن زيارته الأولى كانت تهدف إلى رؤية إن كان آدم وحواء قد واجها مشاكل في مسألة الاستقرار المنزلي، والزيارة الثانية لمعرفة إن كانا قد استفادا شيئاً من تجربة الحياة البرية، والثالثة ليخبرهما بأنه لا

يأمل الرجوع قريباً، لأن عليه القيام بجولة على الفراديس الأخرى الموجودة في الفضاء السماوي. وهو لم يعد للظهور، عملياً، إلا بعد وقت طويل جداً، في تاريخ لم يبق له أي سجل، كي يطرد الزوجين التعسين من جنة عدن بسبب جريمتهما الفظيعة بالأكل من ثمر شجرة معرفة الخير والشر. وهذه الواقعة التي كانت الأصل في أول تعريف لخطيئة أصلية ظلت مجهولة حتى ذلك الحين، ولم تُفسر جيداً قطّ. ففي المقام الأول، لا يمكن حتى لأشد أشكال الذكاء بدائية أن تجد صعوبة في فهم أن المعرفة أفضل دائماً من عدم المعرفة، ولاسيما في موضوع بالغ الحساسية مثلما هي مسألة الخير والشر، حيث يمكن للمرء أن يجازف، دون أن ينتبه، بأن يُحكم عليه بالعذاب الأبدي في جحيم كان لا يزال آنذاك في طور الاختراع. وفي المقام الثاني، الشكوى إلى السموات من قلة تبصُّر السيد، لأنه إن كان لا يريد لهما حقاً أن يأكلا تلك الثمرة، فإن علاج الأمر بمنتهى البساطة، كان يكفيه عدم زرع الشجرة، أو وضعها في مكان آخر، أو إحاطتها بسياج أسلاك شائكة. وفي المقام الثالث، لم يكن عصيانهما أوامر الرب هو ما جعل آدم وحواء يكتشفان أنهما عاريان. فقد كانا عاريين، وبعري كامل، حين كانا يذهبان إلى الفراش، وإذا كان السيد لم يلتفت من قبل إلى خطيئة عدم الحياء الواضحة تلك، فإن الذنب يقع على عاتق عماه كأب،

وهو العمى نفسه، ويبدو أنه لا علاج له، الذي يحول دون رؤيتنا أن أبناءنا هم، في نهاية المطاف، جيدون أو سيئون مثل الآخرين.

مسألة نظام. قبل أن نواصل هذه القصة التعليمية والحاسمة عن قايين الموضوعة بجرأة غير مسبوقة، سوف نترك الرجل قليلاً، لأنه ربما يكون من المستحسن، كيلا يجد القارئ نفسه وقد اختلط عليه الأمر للمرة الثانية بموازين ومقاييس عفا عليها الزمن، أن نُدخل وجهة نظر في التسلسل التاريخي للأحداث. وهذا ما سنفعله، بادئين بتوضيح بعض الشكوك الخبيثة التي تظهر حول إن كان آدم مؤهلاً لصنع ابن وهو في المائة والثلاثين من العمر. الجواب للوهلة الأولى، لا، إذا ما استندنا إلى مؤشرات الخصوبة في الأزمنة الحديثة، ولكن تلك المائة والثلاثين عاماً، في طفولة العالم تلك، ما كانت لتمثل أكثر من مجرد مراهقة عادية ومتينة يتمناها لنفسه حتى أشد الكازانوفات المبكرين. ومن المناسب أن نتذكر، فوق ذلك، أن آدم عاش حتى سن التسعمائة والثلاثين عاماً، ولم يكن قد تبقى له إلا القليل ليموت غرقاً في الطوفان الكوني، ذلك أنه توفي في أيام حياة لامك، أبي نوح، باني الفلك المقبل. لقد توافر له الوقت والطمأنينة ليصنع الأبناء الذين صنعهم وأكثر منهم لو أتيح له ذلك. ومثلما قلنا، الابن الثاني الذي سيلي قايين، هو هابيل، وهو فتى ضارب إلى

الحمرة، وسيم الهيئة، وبعد أن كان محط أفضل اختبارات التقدير من جانب السيد، انتهى بأسوأ طريقة. والثالث، كما ذكر من قبل أيضاً، سموه سيث، ولكن هذا لا يدخل في سردنا القصصي الذي نصوغه خطوة فخطوة بتكلف المؤرخين، وبالتالي سنتركه هاهنا، مجرد اسم لا أكثر. وإن كان هناك من يؤكد أن فكرة تأسيس ديانة قد ولدت من رأسه، ولكن هذه المسائل الحساسة تناولناها بوفرة في الماضي، بخفة مهاترة حسب رأي بعض الخبراء، أو بعبارات من المحتمل جداً أن تلحق بنا الضرر فقط في مرافعات يوم القيامة، يوم ستدان الأرواح جميعها سواء بسبب شطط ما أو بسبب نقيصة. أما ما يهمنا الآن فهو الأسرة التي رأسها بابا آدم، ويا له من رأس سيئ، ولا نرى كيف نقول ذلك بطريقة أخرى، إذ كان يكفي أن تأتيه المرأة بثمرة معرفة الخير والشر المحرمة، ليقوم البطريرك الأول، بعد أن يجعلها تتوسل إليه، من أجل إرضاء غروره في الواقع أكثر مما هو بسبب القناعة، بالاختناق بلقمة، وليخلفنا نحن، بني البشر، موسومين إلى الأبد بتلك القطعة المخرِّشة من التفاحة في الحلق، لا تصعد ولا تنزل. ولا نعدم كذلك من يقولون إنه إذا كان آدم لم يتوصل إلى ابتلاع الثمرة المشؤومة كاملة فإنما لأن السيد ظهر فجأة يريد أن يعرف ما الذي يحدث هناك. وبالمناسبة، وقبل أن ننسى تماماً أو يجعل مسار القصة أمر الإشارة غير ملائم، بسبب

التأخر، علينا أن نكشف عن الزيارة المتكتمة، شبه السرية، التي قام بها السيد إلى جنة عدن ذات ليلة صيف حارة. وكما هي العادة، كان آدم وحواء ينامان عاريين، أحدهما إلى جانب الآخر دون أن يتلامسا، صورة حسنة تبعث على التقوى وإن كانت لا تتوافق مع أشد أشكال البراءة كمالاً. لم يستيقظا ولم يوقظهما السيد. وما دفعه للذهاب إلى هناك هو النية في إصلاح خطأ في التصنيع يؤثر، كما تنبه فيما بعد، بصورة جدية على مخلوقاته، ويتمثل، تصوروا، في عدم وجود السرّة. كان بياض سطح جلد طفليه الذي لم تتوصل شمس الفردوس الرقيقة إلى تحميصه، يبدو شديد العريّ، شديد الجاذبية، وفاحشاً بطريقة ما، إن كانت هذه الكلمة موجودة آنذاك. ودون تأخير، قبل أن يستيقظا، مدّ الرب ذراعه وضغط بخفة على بطن آدم بطرف إصبعه السبابة، وقام بحركة دورانية فظهرت السرة. ثم أُجريت العملية نفسها بعد ذلك لحواء، فأعطت نتائج مماثلة، وإن يكن بفارق مهم تمثل في أن سرتها خرجت أفضل بكثير في ما يتعلق بالتصميم والحواف ودقة طياتها. وكانت تلك هي آخر مرة نظر فيها السيد إلى عمله ورأى أنه حسن.

بعد خمسين سنة ويوم واحد من تلك المداخلة الجراحية الموفقة التي بدأت معها حقبة جديدة من جمالية الجسد البشري تحت الشعار المتساهل بأن كل شيء فيه قابل للتحسين، وقعت

الكارثة. حضر السيد بعد أن أُعلن عن مجيئه بدوي رعد. وكان حين حضر يلبس بطريقة مختلفة عن المعهود، وهو ما ستكون عليه، كما يبدو، التقليعة الإمبراطورية الجديدة للسماء، مع تاج ثلاثي على رأسه وشاهراً الصولجان كهراوة. أنا السيد، صرخ، أنا من أنا. خيم صمت الموت على جنة عدن، لم يعد يُسمع طنين دبور، ولا نباح كلب، ولا زقزقة طائر، ولا صئِيُّ فيل. سربٌ من الزرازير فقط كان يستقر على شجرة زيتون وارفة، يعود أصلها إلى أزمنة تأسيس الجنة، انطلق محلقاً في اندفاعة واحدة، وكان في السرب مئات الطيور، كيلا نقول آلافاً، أعداد كبيرة كادت تحجب السماء بالظلمة. من الذي عصى أوامري، من اقترب من ثمر شجرتي، سأل الرب موجهاً مباشرة إلى آدم نظرة متلألئة، وهذه كلمة غير مستعملة ولكنها معبرة أكثر من غيرها. وبيأس، حاول الرجل المسكين، دون نتيجة، أن يبتلع قطعة التفاح التي وشت به. أجب، أصر صوت السيد الغاضب، وكان يهز في الوقت نفسه الصولجان متوعداً. فتصنع آدم الجرأة بأن جعل من أحشائه قلباً، وهو مدرك مدى قبح إلقاء الذنب على شخص آخر، وقال، المرأة التي أعطيتَني أنت إياها لتعيش معي هي من قدمت إليّ ثمر هذه الشجرة وأنا أكلته. التفت السيد نحو المرأة وسأل، ما الذي فعلتِه أنتِ، أيتها التعسة، فأجابت، الحيّة خدعتني وأنا أكلت، كاذبة، مفترية، لا وجود لحيّة في

الفردوس، سيدي، أنا لم أقل إن الحيّات موجودة في الجنة، ما قلته إنني رأيتُ حلماً ظهرت لي فيه حيّة وقالت لي، لقد منعكما السيد إذاً من أكل ثمار كل أشجار الجنة، فأجبتُها أنا إن ذلك غير صحيح، وإن الشجرة الوحيدة التي لا نستطيع أكل ثمرها هي التي في وسط الفردوس، وإننا سنموت إذا لمسناها، فقال السيد، الحيّات لا تتكلم، وهي في أحسن الحالات تصفر، حيّة حلمي تكلمت، وماذا قالت لكِ أيضاً، إن كان ممكناً أن نعرف، سألها السيد وهو يبذل جهده لطبع الكلمات بنبرة مستهزئة لا تتفق بأي حال مع وقار الملابس السماوية، قالت لي الحية إننا لن نموت، آه، هكذا إذاً، وكانت سخرية السيد تزداد جلاء وهو يضيف، يبدو أن تلك الحية تظن أنها تعرف أكثر مني، هذا ما حلمتُ به يا سيدي، وأنك لا تريدنا أن نأكل من هذه الثمرة لأنها تفتح عيوننا ونتوصل إلى معرفة الخير والشر مثلما تعرفهما أنت أيها السيد، وماذا فعلتِ أيتها المرأة الضالة، أيتها المرأة الطائشة، عندما استيقظتِ من ذلك الحلم الجميل، اقتربتُ من الشجرة، أكلتُ من الثمر، وحملتُ منها لآدم الذي أكل أيضاً، لقد ظلت عالقة هنا، قال آدم ملامساً حنجرته، حسن جداً، قال السيد، بما أنكما أردتما ذلك، فسوف تحصلان عليه، ومنذ الآن انتهت حياتكما المريحة، فأنتِ يا حواء، فضلاً عن معاناة كل إزعاجات الحبل، بما في ذلك الغثيان، ستلدين

أولاداً بالوجع أيضاً، وبالرغم من ذلك كله، ستشعرين دوماً بالاشتياق إلى رجلكِ، وسيسود هو عليكِ، فقالت حواء، يا لتعاستكِ يا حواء، بداية سيئة تبدئين، ومصيراً حزيناً ستلقين، كان عليكِ أن تفكري في الأمر قبل الإقدام عليه، أما أنتَ يا آدم، فالأرض ملعونة بسببك، وبالجهد العظيم ستحصل منها على الغذاء طيلة حياتك كلها، لن تُنبت لك إلا الشوك والعوسج، وستأكل عشب الحقل، وبالعرق الغزير فقط ستحصد ما تأكله حتى ترجع ثانية إلى الأرض، لأنكَ منها صُنعتَ، والحق يا آدم التعيس أنك من تراب وإلى تراب ستتحول ذات يوم. قال السيد هذا ثم أظهر بعض جلود الحيوانات ليستر عريّ آدم وحواء، فغمز كل منهما الآخر بعينه في إيماءة تواطؤ، لأنهما كانا يعرفان منذ اليوم الأول أنهما عاريان، وقد استغلا ذلك على أحسن وجه. عندئذ قال السيد، بعد أن عرف الإنسان الخير والشر، صار شبه إله، ولم يعد ينقصني الآن إلا أن يجد ثمر شجرة الحياة ويأكل منه فيحيا إلى الأبد، هذا ما كان ينقصنا، أن يصير إلهان في كون واحد، ولهذا أطردك أنت وامرأتك من جنة عدن هذه، وسأضع ملاك كروبيم حارساً على بابها مسلحاً بسيف لهب لا يسمح لأحد أبداً بالدخول إليّ. وبينما آدم وحواء يحملان على أكتافهما الجلود كريهة الرائحة، ويتأرجحان على أرجلهما الخرقاء، بدوا كقردي أورنغوتان ينتصبان أول مرة

واقفين. وخارج جنـة عـدن، كانـت الأرض قاحلـة، مقفـرة، ولم يكن السيد مبالغاً حين توعد آدم بالشـوك والعوسـج. ومثلمـا قـال لهما أيضاً، كانت حياتهما المريحة قد انتهت.

2

المنزل الأول كان مغارة ضيقة، والحقيقة أنها حفرة أكثر منها مغارة، سقفها واطئ، مكشوفة في نتوء صخري شمالي جنة عدن، وجداها بينما هما يهيمان على وجهيهما، يائسين، بحثاً عن ملجأ. وهناك تمكنا، أخيراً، من حماية نفسيهما من لسع الشمس الحارقة التي لا تشبه في شيء درجة الحرارة اللطيفة والثابتة التي اعتادا عليها والتي لم تكن تتبدل في الليل أو النهار، أو في أي فصل من السنة. نزعا عنهما الجلود السميكة التي خنقتهما برائحتها ونتانتها، ورجعا إلى عريهما الأول، ولكنهما، ولكي يحميا أجزاء جسديهما الحساسة، تلك المحمية بين الساقين، من الاعتداءات الخارجية، اخترعا، باستخدام أشد الجلود نعومة وأقصرها فراء، شيئاً ستُطلق عليه في ما بعد تسمية التنورة، وهي متطابقة في الشكل للرجال والنساء على السواء. وخلال الأيام الأولى، حين لم يكن لديهما ولو كسرة خبز يمضغانها، عانيا الجوع. لقد كانت جنة عدن غنية بالثمار، بل أكثر من ذلك، لم يكن يوجد فيها شيء آخر نافع للأكل، حتى

إن الحيوانات التي عليها، بطبيعتها، أن تتغذى على اللحم الدامي، لأنها لاحمة جاءت إلى الدنيا، أُخضعت، بمشيئة إلهية، للحمية الكئيبة وغير المُشبعة نفسها. ولم يتضح قطّ منشأ الجلود التي أظهرها السيد فجأة، بمجرد فرقعة من أصابعه، مثل ساحر. لقد كانت جلود حيوانات، وحيوانات كبيرة، ولكن من يدري من هو الذي قتلها وسلخها، وأين فعل ذلك. وبالمصادفة، كان هناك ماء قريب، وإن يكن مجرد جدول عكر، لا يشبه في شيء النهر الغزير الذي ينبع من جنة عدن ثم ينقسم بعد ذلك إلى أربعة فروع، أحدها يمضي ليروي منطقة يقال إن الذهب وافر فيها، وآخر يجري حول أرض كوش. والنهران الآخران، مهما بدا ذلك عجيباً لقراء اليوم، عُمِّدا على الفور باسمي دجلة والفرات. وبالمقارنة مع الجدول البائس الذي يشق طريقة بمشقة بين شوك الصحراء وعوسجها، فإن الاحتمال الأكبر هو كون ذلك النهر الغزير مجرد وهم بصري صنعه السيد نفسه ليجعل حياة الفردوس الأرضي أكثر هدوءاً. كل شيء ممكن الحدوث. كل شيء ممكن الحدوث، أجل، بما في ذلك الفكرة الغريبة التي خطرت لحواء بالذهاب للطلب من ملاك الكروبيم أن يسمح لها بالدخول إلى جنة عدن من أجل التقاط بعض الثمار لإسكات الجوع بضعة أيام أخرى. ولأن آدم، مثل أي رجل آخر، متشكك حيال نتائج أي مسعى يولد من رأس أنثى، فقد

طلب منها أن تذهب هي وحدها، وأن تتهيأ لمعاناة خيبة أمل. فالحارس على الباب هناك هو ذلك الكروبيم ذو السيف المتقد، وليس أي ملاك عادي من الدرجة الثانية أو الثالثة، بلا وزن ولا سلطة، بل كروبيم حقيقي، فكيف يخطر لكِ التفكير في أنه سيعصى أوامر أصدرها إليه السيد، كان هذا هو السؤال الحصيف. فردَّت عليه، لستُ أدري، ولن أدري ذلك ما لم أجربه، وإذا أنتِ لم تحصلي على طلبكِ، إذا أنا لم أحصل عليه فلن أخسر شيئاً سوى خطوات الذهاب والإياب، والكلمات التي سأقولها، أجل، ولكننا سنتعرض للمشاكل إذا ما وشى بنا الكروبيم للسيد، مشاكل أكبر من التي لدينا الآن، دون وسيلة لكسب عيشنا، وبلا طعام نحمله إلى فمنا، وبلا سقف آمن ولا ملابس جديرة بهذا الاسم، لا أرى مشاكل أخرى أكبر يمكن أن يرسلها إلينا، فقد عاقبنا السيد بطردنا من جنة عدن، ولا يخطر لي ما يمكنه فعله أسوأ من ذلك، نحن لا نعرف شيئاً حول ما يستطيعه السيد وما لا يستطيعه، إن كان الأمر كذلك، سيكون علينا أن نضغط عليه ليوضح نفسه، وأول أمر عليه توضيحه هو سبب صنعه لنا ومن أجل أي هدف، أنتِ مجنونة، أن أكون مجنونة خير من أن أكون مرعوبة، إياكِ من إساءة احترامي، صرخ بها آدم، وأضاف غاضباً، أنا لستُ مرعوباً، لستُ رعديداً. ولا أنا كذلك، وبهذا نكون متعادلين، ولا وجود لما نتجادل فيه

أكثر، أجل، ولكن عليكِ ألا تنسي أن من يأمر هنا هو أنا، أجل، هذا ما قاله السيد، وافقت حواء، وأبدت وجهَ من لم تقل شيئاً. وعندما فقدت الشمس شيئاً من حدتها، انطلقت في الطريق متأنقة بتنورتها وبفرو من أخف الفراء على كتفيها. كانت تمشي بطريقة يمكن لأحدنا القول إنها محتشمة، وإن لم تكن قادرة على أن تتجنب، مع ذلك، اهتزاز ثدييها الطليقين على إيقاع خطواتها. لا يمكنها منعهما، ولم يخطر لها مثل ذلك الخاطر، لأنه لم يكن هناك أحد يمكن أن تجتذبه، في ذلك الزمن، الأثداء التي تنفع للرضاعة ولما هو أكثر قليلاً من ذلك. كانت تشعر بالمفاجأة من نفسها للحرية التي ردت بها على زوجها، دون خوف، ودون أن تضطر إلى اختيار الكلمات، والقول له ببساطة ما كان الوضع، برأيها، يتطلبه. بدا كما لو أن امرأة أخرى تسكن في داخلها، متحررة من أي تبعية للسيد أو الزوج الذي اختاره لها، رجل يقرر أخيراً الاستخدام الكامل للسان واللغة اللذين دسهما، كما يمكن لنا القول، السيد المذكور عميقاً في فمه. اجتازت الجدول مستمتعة ببرودة الماء التي بدا أنها تنتشر في أوردتها في الوقت الذي شعرت فيه بشيء في روحها ربما يكون السعادة، فهو يبدو على الأقل شبيهاً جداً بهذه الكلمة. أعطتها معدتها إشارة، فالوقت غير مواتٍ لمشاعر إيجابية. خرجت من الماء، التقطت بعض الثمار الصغيرة الحامضة، ومع أنها لا

تُشبع، إلا أنها تلهي لبعض الوقت، وإن يكن قصيراً، عن الحاجة إلى الأكل. لقد صارت جنة عدن قريبة، وظهرت لها بوضوح قمم الأشجار العالية. أصبحت حواء تمشي الآن ببطء أكثر من السابق، وليس ذلك لأنها تشعر بالتعب. لو كان آدم معها لسخر منها، شُجاعةٌ، شديدة الشجاعة، وفي النهاية يملؤك الخوف. أجل، كانت خائفة، خائفة من الإخفاق، من عدم امتلاكها ما يكفي من الكلمات لإقناع الحارس، بل وصلت إلى حد القول بصوت خافت، وهو ما بلغه خمود همتها، **لو** أنني كنت رجلاً لكان الأمر أسهل. وهناك كان ملاك الكروبيم، وكان السيف المتقد يلمع بنور خبيث في يده اليمنى. غطت حواء صدرها بصورة أفضل وتقدمت. **ماذا** تريدين، سألها الملاك، إنني جائعة، أجابت المرأة، **لا** يوجد هنا ما يمكنك أن تأكليه، إنني جائعة، **لقد** طردكِ السيد أنتِ وزوجكِ من جنة عدن وليس لحكمه استئناف، فانصرفي، **هل** ستقتلني إذا دخلتُ، سألته حواء، **لهذا** الهدف وضعني السيدُ حارساً، **لم** تُجب على سؤالي، **هذه** هي الأوامر المعطاة لي، **أن** تقتلني، **أجل**، ستطيع الأوامر إذاً. لم يجبها الكروبيم. حرك الذراع التي تمسك يدها بسيف اللهب الصافر مثل حيّة، وكان هذا هو جواب الحارس. تقدمت حواء خطوة. **توقفي**، قال الكروبيم، **سيكون** عليكَ أن تقتلني، لأنني لن أتوقف، ثم خطت خطوة أخرى

وأضافت، ستظلّ هنا تحرس بستان ثمار متعفنة لا يشتهيها أحد، بستان الرب، بستان تفاح السيد. ماذا تريدين، سألها الكروبيم ثانية، دون أن ينتبه إلى أن التكرار سيُفسّر على أنه علامة ضعف، فكررت المرأة، إنني جائعة، كنتُ أظن أنكما صرتما بعيدين، وإلى أين سنذهب بعيداً، سألت حواء، إننا في وسط صحراء لا نعرفها ولا يُرى فيها أي طريق، صحراء لم تمر منها خلال هذه الأيام ولو نفس حية واحدة، ننام في ثقب، نأكل أعشاباً، مثلما وعد السيد، وقد أُصبنا بالإسهال، إسهال، ما هو هذا الشيء، سألها الكروبيم، يمكن تسميته «هِرار» أيضاً، فقائمة المفردات التي علمنا السيد إياها تغطي كل شيء، والإسهال أو الهرار، إن كانت هذه الكلمة الأخيرة تعجبك أكثر، يعني عدم التمكن من كبح البراز الذي في داخلنا، لا أدري ما هو هذا الذي تتكلمين عنه، هذه فائدة أن تكون ملاكاً، قالت حواء وابتسمت. أُعجب الكروبيم برؤية تلك الابتسامة. فالابتسام في السماء كثير أيضاً، ولكنه ملائكي على الدوام، وبملمح خفيف معاكس، كمن يطلب الاعتذار لأنه سعيد، إن كان بالإمكان إطلاق صفة السعادة على ذلك. لقد انتصرت حواء في معركة الجدل، ولم يبق الآن سوى معركة الطعام. فقال الكروبيم، سآتيكِ ببعض الثمار، ولكن لا تخبري أحداً، لن ينفتح فمي، وإن كان زوجي سيعرف ذلك على أي حال، ارجعي معه في

الغد، فلدينا ما نتحدث فيه. نزعت حواء الفرو عن كتفيها وقالت، استخدم هذا لإحضار الثمار. كانت عارية من خصرها إلى أعلى. صفر سيف اللهب بقوة أكبر، كما لو أنه تلقى دفقة طاقة مفاجئة، وهي الطاقة نفسها التي استخدمها الكروبيم ليخطو خطوة إلى الأمام، والطاقة نفسها التي جعلته يرفع يده اليسرى ويلمس صدر المرأة. لم يحدث أي شيء آخر، لا يمكن لأي شيء آخر أن يحدث، فالملائكة، ماداموا ملائكة، تحظر عليهم أي تجارة جسدية، والملائكة العصاة وحدهم هم الأحرار في اللقاء بمن يحبون أو بمن يحبهم. ابتسمت حواء، ووضعت يدها فوق يد الكروبيم وضغطت عليها برفق فوق النهد. كان جسدها مغطى بالقذارة، وأظفارها سوداء كما لو أنها استخدمتها في حفر التراب، وشعرها مثل عش حنكليسات متشابكة، ولكنها امرأة، وهي المرأة الوحيدة. دخل الملاك إلى الجنة، وظل هناك لما يحتاجه من وقت كي يختار أفضل الثمار المغذية، وأخرى غنية بالماء، ورجع منحنياً تحت ثقل الحمولة الجيدة. إليكِ هذه، قال، فسألته حواء، ما اسمكَ، وأجابها، اسمي آزائل، لا يمكنني أن أترك من خلقهما السيد يموتان جوعاً، السيد سيشكركَ على صنيعك، وإن كان من الأفضل ألا تحدثه عن هذا الأمر. تظاهر الكروبيم بأنه لم يسمع أو أنه لم يسمع حقاً، فقد كان منهمكاً في مساعدة حواء في وضع الحزمة على ظهرها بينما

هو يقول، ارجعي غداً مع آدم، سنتحدث في أمر يناسبكما معرفته، سنكون هنا، أجابته.

في اليوم التالي رافق آدم المرأة إلى جنة عدن. وبمبادرة من حواء اغتسلا بأفضل ما استطاعا في مسيل الماء، وأفضل ما استطاعاه كان ضئيلاً جداً، كيلا نقول إنه كان عدماً، لأن الماء دون صابون يمده بالعون لا يعدو كونه إيحاء بالنظافة. جلسا على الأرض، وعلى الفور رأيا أن الكروبيم آزائل ليس بشخص يضيع الوقت، لستما الكائنين البشريين الوحيدين على الأرض، بدأ بالقول لهما، فهتف آدم بذهول، لسنا الوحيدين، **لا** تجعلني أكرر ما قيل، **من** الذي خلق تلك الكائنات، وأين هم، إنهم في كل الأنحاء، **هل** خلقهم السيد مثلما خلقنا، سألته حواء، **لا** يمكنني الإجابة، وإذا ألححتما في السؤال فسوف أنهي حديثنا فوراً، ويذهب كل منا في سبيله، أنا إلى حراسة جنة عدن، وأنتما إلى مغارتكما وجوعكما، **في** هذه الحالة سنموت خلال وقت قصير، قال آدم، فأنا لم يعلمني أحد العمل، لا يمكنني حفر الأرض أو حرثها لأنني أفتقر إلى المعول وإلى المحراث، ولو كنت أمتلكهما سيكون عليّ أن أتعلم كيفية استخدامهما وليس هناك من يعلمني في هذه الصحراء، ومن الأفضل لنا أن نكون التراب الذي كنا عليه من قبل، بلا إرادة ولا رغبة، لقد تكلمتَ مثل كتاب مفتوح، قال الكروبيم، وابتهج آدم لأنه تكلم ككتاب

مفتوح، وهو الذي لم يتلق دروساً قطّ. بعد ذلك سألت حواء، مادامت توجد كائنات بشرية أخرى، فلماذا خلقنا السيد، يجب أن تعلما أن مقاصد السيد عميقة الغور، ولكن إذا كنت قد فهمتُ بعض أنصاف الكلمات، فيبدو لي أن الأمر كان تجربة، فصرخ آدم، تجربة، نحن تجربة، لأي شيء، حول ما لا أعرفه معرفة مؤكدة لا يمكنني التحدث، فللسيد أسبابه كي يحتفظ بالصمت حول الموضوع، نحن لسنا موضوعاً، إننا شخصان لا يعرفان كيف يمكنهما العيش، قالت حواء، لم أُنهِ كلامي بعد، قال الكروبيم، تكلم إذاً، وليخرج من فمك خبر طيب، خبر واحد طيب على الأقل، اسمعا، غير بعيد من هنا يمر طريق ترتاده بين حين وآخر قوافل تذهب إلى الأسواق أو ترجع منها، وفكرتي تتمثل في أنه عليكما أن تشعلا ناراً تُنتج دخاناً، الكثير من الدخان، بحيث يُرى من بعيد، لا نملك ما نشعل به النار، قاطعته حواء، أنتِ لا تملكين، أما أنا فأملك، ماذا تملك، سيف اللهب هذا، لا بد أن ينفع لشيء ذات مرة، يكفي تقريب رأسه المتقد من الأشواك الجافة والقش فتحصلا على محرقة يمكن أن تُرى من القمر، وأن تكون مرئية أكثر لقافلة قريبة عابرة، ولكن عليكما توخي الحذر من ترك النار تمتد، فإشعال موقد هو شيء، وشيء آخر هو حريق يلتهم القفر كله، لأن الناس ستنتهي بالوصول إلى جنة عدن وأفقد أنا وظيفتي

وأظل بلا عمل، وإذا لم يظهر لنا أحد، سألته حواء، سيظهرون، سيظهرون، يمكنكِ أن تطمئني، أجابها آزائل، فالكائنات البشرية فضولية بطبيعتها، وسترغب على الفور في معرفة من أوقد النار وبأية نوايا أشعلها، وبعد ذلك، سأله آدم، بعد ذلك سيكون شأنكم، فهناك لا يعود بإمكاني عمل شيء، ابحثا عن طريقة للانضمام إلى القافلة، اطلبوا أن يتعاقدوا معكما مقابل الطعام، وأنا واثق من أن أربع أذرع مقابل طبق عدس سيكون صفقة مربحة للجميع، سواء للجانب المتعاقِد أو الجانب المتعاقَد معه، وعندما يحدث هذا لا تنسيا إطفاء المحرقة، فهكذا سأعلم أنكما قد ذهبتما، وستكون فرصتك يا آدم كي تتعلم ما لا تعرفه. كانت الخطة رائعة، فهناك ملائكة كروبيم في العالم يشكلون عناية إلهية حقيقية، فبينما لم يبدِ السيد، في هذه التجربة على الأقل، أدنى اهتمام بمستقبل مخلوقيّه، قام آزائل، الحارس الملائكي المكلف بإبقائهما بعيدين عن جنة عدن، باحتضانهما بصورة مسيحية، ووفر لهما الطعام، وأهلهما قبل ذلك كله للحياة ببعض الأفكار العملية الثمينة، وبطريق خلاص حقيقي للجسد، وبالتالي للروح. ذاب الزوجان في إبداء الشكر، ووصل الأمر بحواء إلى سكب بعض الدموع حين عانقت آزائل، وهو مظهر عاطفي لم يرق لزوجها بأي حال، فلم يتمكن في ما بعد من كبح السؤال الذي كان يتقافز في فمه، هل أعطيتِه شيئاً

بالمقابل، ماذا، ولمن، قالت حواء وهي تعرف جيداً ما الذي يعنيه الزوج، لمن سيكون، له، لآزائل، قال آدم جاذفاً بدافع الحذر الجزء الأول من المسألة، فردّت عليه حواء، إنه كروبيم، إنه ملاك، ولم تجد حاجة لقول أي شيء آخر. ويُعتقد أن حرب الأجناس بدأت في ذلك اليوم. تأخرت القافلة في الظهور ثلاثة أسابيع. ولم تحضر القافلة كلها طبعاً إلى المغارة التي يعيش فيها آدم وحواء، وإنما جاءت مفرزة مكونة من ثلاثة رجال غير مخولين بالتفاوض على عقود عمل، ولكنهم أشفقوا على ذينك البائسين وأفسحوا لهما مكاناً على ظهور الحمير التي يركبونها. وسيقرر رئيس القافلة ما سيفعله بهما. على الرغم من هذا الشك، وكمن يغلق باب وداع، أطفأ آدم الموقد. وعندما تبددت آخر سحب الدخان من الجو، قال الكروبيم، لقد خرجا، رحلة موفقة.



3

لم تسئ الحياة معاملتهما. فقد قُبلا في القافلة على الرغم من عدم أهليتهما الواضحة للعمل، ولم يكن عليهما أن يقدما الكثير من التفسيرات حول من هما ومن أين يأتيان. قالا إنهما قد ضاعا، وقد كانا كذلك في نهاية الأمر. أُغفل واقع أنهما ابنا السيد، وهو أمر ما كان أحد هناك في ظروف تمكنه من معرفته، إذ لم تكن تُلحظ اختلافات خاصة كبيرة بينهما وبين مضيفيهم الذين وفرتهم لهما العناية الإلهية، حتى يمكن القول إنهم جميعاً ينتمون إلى العرق نفسه، شعر أسود، بشرة سمراء، عيون قاتمة، حواجب بارزة. وعندما ولد هابيل استغرب الجيران كلهم من البياض الوردي الذي جاء به إلى الدنيا، كما لو أنه ابن ملاك، أو رئيس ملائكة، أو كروبيم، مع المعذرة. لم يفتقرا إلى طبق العدس، ولم تكن هناك حاجة إلى وقت طويل كي يبدأ آدم وحواء تقاضي أجرهما، شيء ضئيل، شبه رمزي، ولكنه يشكل بداية حياة. وليس آدم وحده، بل حواء كذلك التي لم تولد لتكون دوقة، بدأت تتعلم شيئاً فشيئاً أسرار العمل بيديها، في

عمليات بالغة البساطة مثل ربط عقدة منزلقة في حبل، أو أعمال شديدة التعقيد مثل استخدام إبرة دون التسبب بوخز كثير في الأصابع. حين وصلت القافلة إلى القرية التي كانت قد خرجت منها قبل أسابيع من أجل المتاجرة، قدموا لهما خيمة وبعض الحصائر ليناما عليها، وبفضل هذه الفترة وغيرها من فصول الاستقرار، استطاع آدم، أخيراً، أن يتعلم حفر الأرض وحراثتها، ونثر البذور في الأثلام، حتى توصل إلى ذروة فنون التقليم، هذا الفن الذي لم يكن بمقدور أي سيد، أي إله، أن يخترعه. بدأ العمل بأدوات أعاروه إياها، وبعد ذلك راح يجمع أدواته الزراعية الخاصة، وبعد عدة سنوات صار جيرانه يعتبرونه مزارعاً جيداً. أما ذكريات جنة عدن والمغارة في الصحراء، والأشواك والعوسج، وجدول المياه العكرة، فراحت تتلاشى من الذاكرة حتى بدت لهما في بعض الأحيان اختلاقات مجانية لم يعيشاها، بل لم يحلما بها، وربما هي حدس بشيء كان يمكن له أن يكون حياة أخرى، وكائناً آخر، وقَدَر آخراً مختلفاً. صحيح أنه كان في ذاكرة حواء مكان محجوز لآزائل، الكروبيم الذي خالف أوامر السيد كي ينقذ له مخلوقاته من موت محتم، ولكن ذلك كان سراً خاصاً بها، لم تبح به لأحد. وجاء يوم تمكن فيه آدم من شراء قطعة من الأرض يسميها له ويشيد، على سفح تلٍ، بيتاً من طين بدائي، حيث يمكن أن يولد أبناؤه الثلاثة،

قـايين وهابيـل وسـيث، وجمـيعهم، في الأوقـات الملائمـة مـن حيواتهم، حبوا بين المطبخ والصالة. وكذلك بين المطبخ والحقل، لأن الكبيرين منهم، حين صارت لهمـا بضـع سـنين مـن العمـر، وبخبث سذاجة صِغر السن، كانا يستخدمان كل الحيل والذرائع النافعة والأقل نفعاً كي يأخذهما الأب معه، راكـبين علـى حمـار العائلة، إلى مكان عمله. وسـرعان مـا تـبين أن ميـول الطفلـين لا تتوافق. فبينما كان هابيل يفضل مرافقة الأغنام والخراف، كانت سعادة قايين كلها تتجه نحو المعازق والمذاري والمناجل، أحـدهما مكرس لشق طريقه في تربية الماشية، وآخر للتفوق في الزراعة. ولا بـد مـن الاعـتراف أن تـوزع اليـد العاملـة المنزليـة كـان مُرضـياً بالمطلق، حيث إنه يغطي أهـم قطـاعين في اقتصـاد ذلـك العصـر. وكان إجماع الجيران جميعـاً علـى أن تلـك الأسـرة سـيكون لهـا مستقبل. ولسوف تتوصل إليه، كما سيتبين خـلال زمـن قصـير، بالاعتماد دائماً علـى مسـاعدة لا غنـى عنهـا مـن جانـب السيد الموجود لهذا الهدف. منذ طفولتهمـا المبكـرة كـان قـايين وهابيـل أفضل صديقين، حتى إن صداقتهما بلغـت حـداً لا يبـدوان معـه أخوين، فحيث يذهب أحدهما يذهب الآخر أيضاً، ويعملان كـل شيء بتوافق مشترك. السيد أحبهما، والسـيد جمعهمـا، هـذا مـا كانـت تقولـه في القريـة الأمهـات الغيـارى، وكـان ذلـك يبـدو صحيحاً. إلى أن جاء يوم أدرك فيه المستقبل أن الوقت قـد حـان

لظهوره. وكان هابيل يمتلك مواشيه، وقايين حقله، ومثلما تتطلب التقاليد والواجب الديني، قدما إلى السيد باكورة عملهما، فأحرق هابيل لحم خروف طرياً وأحرق قايين من نتاج الأرض بضع سنابل وكمية من البذور. وحدث عندئذ شيء لم يعثر له حتى الآن على تفسير. فدخان لحم قربان هابيل صعد مباشرة حتى اختفى في الفضاء اللامتناهي، في إشارة إلى أن السيد تقبل القربان وأنه رضي عنه، ولكن دخان نباتات قايين التي زرعها بحب مماثل لم يصعد بعيداً، وتبدد هناك بالذات، على ارتفاع قليل عن الأرض، مما يعني أن السيد رفضها دون أي تروٍ. أصاب القلق والحيرة قايين، واقترح على هابيل أن يغيرا المكان، فقد يكون هناك تيار هواء يتسبب في الوضع غير المواتي، ففعلا ذلك، ولكن النتيجة كانت نفسها. وبدا الأمر واضحاً، السيد يزدري قايين. وكان أن تبدى عندئذ طبع هابيل الحقيقي. فبدل أن يشفق على حزن أخيه ويواسيه، راح يسخر منه، وكما لو أن هذا قليل، بدأ يرفع من قيمة نفسه، معلناً أمام قايين المرتبك والحائر، أنه المفضل عند السيد، والمختار من الإله. ولم يجد قايين التعيس من مخرج إلا في ابتلاع الإهانة والعودة إلى العمل. وتكرر المشهد، دون تبدل، طيلة أسبوع، فهناك دخان يصعد دائماً، ودخان يمكن لمسه باليد لا يلبث أن يتبدد في الهواء. ودائماً انعدام رحمة هابيل، وتبجح هابيل، وازدراء هابيل.

وذات يوم طلب قايين من أخيه أن يرافقه إلى وادٍ قريب حيث يشاع أن هناك ثعلبة، وفي ذلك المكان، أقدم على قتل أخيه بيديه مستخدماً فكّ حمار كان قد خبأه من قبل في أجمة، أي أنه فعل ذلك مع سبق الإصرار والترصد. وفي تلك اللحظة بالضبط، أي اللحظة التالية للوقائع، دوى صوت السيد، ولم يدوِ الصوت وحده، وإنما ظهر هو بشخصه. فبعد زمن طويل دون أية أخبار عنه، ها هو الآن هنا، يلبس مثلما كان يلبس حين طرد أبوي هذين التعيسين من جنة عدن. كان يضع على رأسه التاج الثلاثي، ويمسك في يده اليمنى الصولجان، ورداء من نسيج فاخر يغطيه من الرأس حتى القدمين. ماذا فعلت بأخيك، سأل، فردّ قايين بسؤال آخر، هل أنا حارس لأخي، لقد قتلتَه، أجل، ولكن المذنب الأول هو أنت، لأنني كنت مستعداً لتقديم حياتي فداء لحياته لو لم تدمر لي حياتي، إنما أردتُ اختبارك، ومن أنت لتختبر من خلقته بنفسك، إنني السيد الأعلى للأشياء كلها، وستقول إنك سيد على الكائنات كلها، ولكن ليس على شخصي ولا حريتي، حرية من أجل القتل، مثلما كنتَ أنت حراً في تركي أقتل هابيل بينما بوسعك منع ذلك، كان يكفيك التخلي لحظة واحدة عن كبرياء عصمتك التي تشترك فيها مع الآلهة الآخرين جميعهم، كانت تكفي لحظة واحدة تكون فيها رحيماً حقاً، وتتقبل قرباني بتواضع، لأنه عليك بكل بساطة ألا

ترفضه، لأن الآلهة، وأنت مثل الآخرين جميعهم، عليكم واجبات تجاه من تقولون إنكم خلقتموهم، هذا الخطاب إغواء، من الممكن أن يكون كذلك، ولكنني أؤكد لك، لو أنني إله، لقلتُ كل يوم، طوبى لمن اختاروا الغواية لأن ملكوت الأرض سيكون لهم، مُدنس للمقدسات، هذا ما سأكونه، ولكن تدنيسي لن يكون على كل حال أعظم من سماحك بموت هابيل، لكنك أنتَ من قتلته، أجل، هذا صحيح، لقد كنتُ اليد المنفذة، ولكن الحكم صدر عنك، الدم الذي هناك لم أسفحه أنا، كان يمكن لك يا قايين أن تختار بين الخير والشر، وإذا كنت قد اخترت الشر فستدفع الثمن، فقال قايين، لا يقل لصوصية من يدخل الكرم عمن يظل يراقب الحارس، وهذا الدم يطلب ثأراً، ألح الرب، إن كان الأمر كذلك، فعليك أن تثأر لِميتة حقيقية ومِيتة أخرى لم تتحقق، أوضِّح ما تقول، لن يروقك ما ستسمعه، هذا لا يعنيك، تكلم وحسب، الأمر بسيط جداً، قتلتُ هابيل لأنني لا أستطيع قتلك أنت، ولكنك في نيتي ميت، أفهم ما تريد قوله، لكن الموت محظور على الآلهة، أجل، مع أنه عليهم أن يتحملوا وزر كل الجرائم المقترفة باسمهم أو في سبيل قضيتهم، الرب برئ من ذلك، وسيكون كل شيء على هذه الحال لو لم يكن له وجود، أما أنا، فلأنني قتلتُ، يمكن أن أتعرض للقتل على يد أي شخص يلقاني، لن يكون الأمر

كذلك، سأتوصل إلى اتفاق معك، أتتوصل إلى اتفاق مع المنبوذ، سأله قايين دون أن يصدق ما سمعه، فلنقل إنه اتفاق مسؤولية مشتركة عن موت هابيل، أنت تعترف إذاً بحصتك من الذنب، إنني أعترف، ولكن لا تخبر أحداً بذلك، سيكون سراً بين الإله وقايين، ليس هذا صحيحاً، لابد أنني أحلم، هذا ما يحدث في أحيان كثيرة مع الأرباب، هل لأن مقاصدكم، كما اعتدتم القول، عميقة الغور، سأله قايين، لم يتلفظ بهذه الكلمات أي من الآلهة الذين أعرفهم، فنحن لا يخطر ببالنا أبداً القول إن مقاصدنا بعيدة الغور، هذا أمر اختلقه بشرٌ يتظاهرون بأنهم على علاقة الند للند مع الآلهة، ألن أعاقب إذاً على جريمتي، سأله قايين، حصتي من الذنب لا تغفر عن حصتك منه، ولسوف تنال عقابك، وما هو العقاب، ستمضي تائهاً وهائماً على وجهك عبر الدنيا، بما أن الحال هكذا، سيكون بإمكان أي شخص أن يقتلني، لا، لأنني سأضع علامة على جبهتك، لن يُلحق أحد بك الأذى، ولكن مثلما أدفع أنا برحمتي، حاول أنت عدم إلحاق الأذى بأحد، قال السيد وهو يلمس بإصبعه السبابة جبهة قايين، حيث ظهرت على الفور لطخة سوداء، وأضاف السيد، هذه هي علامة إدانتك، ولكنها في الوقت ذاته العلامة التي تشير إلى أنك ستظل مدى الحياة تحت حمايتي وتحت رقابتي، سأراقبك أينما ذهبتَ. إنني موافق، قال قايين، لم يبق

لك مخرج آخر، ومتى تبدأ عقوبتي، الآن بالذات، هل يمكنني أن أودّع أبوي، سأله قايين، هذا شأنك، فأنا لا أتدخل في الأمور الأسرية، ولكنهما سيرغبان بكل تأكيد في معرفة أين هو هابيل، وأظن أنك لن تقول لهما أنك قتلته، لا، لا، لن أودّع أبويّ. انصرف إذاً. لم يعد هناك ما يقال. وقبل أن يخطو قايين خطوة واحدة، كان السيد قد اختفى. وفي أثناء ذلك، كان وجه هابيل قد امتلأ بالذباب، كان الذباب في عينيه المفتوحتين، وعلى جانبي الشفتين، وذباب في جراح يديه اللتين رفعهما ليحتمي من الضربات. يا لهابيل المسكين الذي خدعه الإله. لقد قام السيد باختيار سيئ جداً من أجل افتتاح جنة عدن، ففي لعبة الروليت التي أطلقها، خسر الجميع؛ وفي الرماية على الهدف في العماء لم يُصب أحد الهدف. لقد ظل لحواء وآدم إمكانية إنجاب أبناء دون أن يدريا لماذا ولأي مصير. من أجل استمرار الجنس، يقول أولئك الذين يؤمنون بهدف نهائي، بمسوغ أخير، وإن لم تكن لديهم فكرة عما هو الهدف النهائي أو المسوغ الأخير، ولم يتساءلوا قطّ باسم أي شيء عليهم أن يُديموا بقاء الجنس، كما لو أن ذلك هو الأمل الوحيد والأخير للكون. لقد قدم قايين جوابه حين قتل هابيل لأنه لم يستطع قتل السيد. لا يمكن التنبؤ بشيء جيد في الحياة المقبلة لهذا الإنسان.

4

وعلى الرغم من كل شيء، فـإن هـذا الإنسـان المُطـارد الهـائم على وجهه، المُلاحق بخطواته نفسها، هذا الملعـون، قاتـل الأخ، كانت لديه مبادئ طيبة لا تتـوافر إلا لقلـيلين. ولتقـل ذلـك أمـه التي كانت تجـده في أحيـان كـثيرة جالسـاً علـى أرض البسـتان الرطبة، ينظر إلى شجرة صغيرة زُرعت للتو، منتظراً رؤيتـها تكبر. كان عمره أربع أو خمس سنوات وكان يريد رؤية الأشجار تنمـو. عندئذ، وكانت الأم كما يبدو أكثر خيالية من ابنها، أوضحت له أن الأشجار شديدة الحياء، وأنها لا تنمو إلا حين لا ننظر إليـها، لأنها تشعر بالخجل، قالت له في أحد الأيام. ظل قـايين صـامتاً للحظات، يفكر، ثم أجابها، لا تنظـري إليهـا إذاً يـا أمـاه، لأن الأشجار لا تخجل مـني أنـا، فهـي معتـادة علـيّ. ومسـتبقة مـا سيأتي بعد ذلك، أشـاحت الأم نظرهـا جانبـاً وعلـى الفـور دوى صـوت الإبـن ظـافراً، لقـد نمـت الآن بالـذات، لقـد نمـت الآن بالذات، ألم أقل لكِ ألا تنظري. وفي تلك الليلة، حين رجـع آدم من العمل، أخبرته حواء، وهي تضحك، بمـا حـدث، فأجابهـا

الزوج، سيكون لهذا الفتى شأن عظيم، وسيصل بعيداً. ربما كان سيصل، أجل، ولكن ذلك كان يستدعي عدم وقوف السيد في طريقه. بالرغم من ذلك، فهاهو يذهب بعيداً جداً، وإن يكن في غير الاتجاه الذي تنبأ به الأب. كان يجرجر قدميه، متقدماً في عالم غير واقعي دون أن تظهر لنظره أنقاض كوخ ولا إشارة لأي نوع من الحياة، عزلة مؤثرة تزيد فيها السماء الملبدة من التهديد بوابل مطر وشيك. لم يكن لديه مكان يحتمي به، اللهم إلا تحت واحدة من الأشجار القليلة، التي تطل برؤوسها فوق الأفق القريب، بين حين وآخر، مع تقدمه في المشي. كانت الأغصان، عموماً، قليلة الأوراق، لا تضمن حماية جديرة بأن تسمى حماية. وعندئذ، مع هطول أولى القطرات، انتبه قايين إلى أن عباءته ملوثة بالدم. فكر في أن المطر سيزيل لطخة الدم، ولكن تبين له أن الأمر ليس كذلك، وأنه من الأفضل تمويهها بالتراب، ولن يعرف أحد ما يخفيه التراب، ولاسيما أن رؤية الناس الذين يمضون بعباءات ملوثة ببقع كثيرة لم يكن مستغرباً في تلك الأنحاء. بدأ المطر يهطل بغزارة، وبعد قليل ابتلت العباءة تماماً، ولم يعد يظهر أي أثر للدم عليها، أضف إلى ذلك أن بإمكانه القول، إذا ما سُئل، إنه دم خروف. أجل، قال قايين بصوت عالٍ، ولكن هابيل لم يكن خروفاً، بل هو أخي، وأنا قتلته. وفي تلك اللحظة لم يخطر بباله أن السيد قد قال إنهما كليهما مذنبان

في الجريمة، ولكن الذاكرة لم تتأخر في إسعافه، فأضاف قائلاً، لو أن السيِّد الذي يقال إنه يعرف كل شيء وقادر على كل شيء قد عمل على إخفاء فك الحمار من هناك، لما كنت قتلت هابيل، ولكان بإمكاننا الآن أن نكون معاً أمام باب البيت نرى هطول المطر، ولكان هابيل قد اعترف فعلاً بأن السيد قد أساء التصرف بعدم تقبل الشيء الوحيد الذي يمكنني تقديمه قرباناً إليه، البذور والسنابل التي نمت بجهدي وعَرقي، ولكان لا يزال حياً، ولكنا صديقين حميمين مثلما كنا على الدوام. ولكن البكاء على الحليب المدلوق لا يجدي كثيراً كما يقال، إنه فعل تعليمي بطريقة ما، لأنه يرينا رعونة بعض التصرفات البشرية، وإذا كان الحليب قد اندلق، فقد اندلق وانتهى، ويجب بكل بساطة تنظيفه، ولكن إذا كان هابيل قد مات ميتة خبيثة فلأن هناك من انتزع منه الحياة. غير أن الاستغراق في التفكير والتأمل بينما المطر يهطل علينا ليس في الحقيقة بأكثر الأمور راحة في الدنيا، وربما لهذا السبب كان المطر يتوقف بين حين وآخر، كي يتمكن قايين من التفكير براحة، ويتابع بحرية مسار أفكاره ليرى إلى أين تقوده. لن نعرف ذلك قطّ، لا نحن ولا هو، ذلك أن الظهور المفاجئ، كما لو أنه خروج من العدم، لما تبقى من كوخ أخرجه من أحزانه وكروبه. لقد تبقت علامات زراعة للأرض في الجزء الخلفي من البيت، ولكن كان واضحاً أن سكانه قد هجروه منذ

زمن طويل، أو ربما ليس طويلاً جداً إذا ما أخذنا في الاعتبار الهشاشة الجوهرية، والتماسك المزعزع لمواد تلك المنازل البائسة التي تحتاج إلى إصلاحات دائمة كيلا تنهار في فصل واحد. فإذا ما غابت عنها يد العناية، من الصعب على البيت تحمل التآكل الذي تحدثه الأحوال الجوية، لاسيما المطر الذي يبلل الطين، والريح التي تعصف كأنها مبطنة بورق سنفرة خشن. كانت بعض الجدران الداخلية قد انهارت، وكان السقف مقوضاً في معظم أجزائه، ولم ينجُ سوى ركن محمي نسبياً، وعندها تهاوى المشاء خائر القوى. لم تعد ساقاه قادرتين على حمله، ليس بسبب طول ما مشاه وحسب، وإنما لأن الجوع بدأ يضغط عليه أيضاً. كان النهار آخذاً بالوصول إلى نهايته، وخلال وقت قصير سيبدأ الليل. سوف أمكث هنا، قال قايين بصوت عالٍ، مثلما هي عادته، كما لو أنه بحاجة إلى طمأنة نفسه، هو، من لم يعد هناك مِن أحد قادر على تهديده الآن، هو الذي ربما لا يعرف السيد نفسه مكان وجوده الآن. وبالرغم من أن الجو لم يكن شديد البرودة، إلا أن العباءة المبتلة بالماء، والملتصقة ببدنه، جعلته يرتجف. وفكر في أنه يستطيع بالتعري أن يصطاد عصفورين بحجر واحد، أولاً لأن البرد سينتهي، وكذلك لأن العباءة، وهي من قماش غير سميك، لن تتأخر طويلاً في الجفاف إذا ما فردها. وهذا ما فعله، وأحس على الفور بالتحسن. صحيح أن رؤية نفسه

عارياً مثلما جاء إلى الدنيا لم يبدُ له حسناً، ولكنه كان وحيداً، بلا شهود، ودون أحد يمكن أن يلمسه. بعث فيه هذا التفكير قشعريرة جديدة، ليس القشعريرة نفسها، ليس تلك الناتجة عن ملامسته المباشرة للعباءة المبللة، وإنما نوع من النبض في المنطقة الجنسية، تصلبٌ خفيف ما لبث أن اختفى، كما لو أنه قد خجل من نفسه. كان قايين يعرف حقيقة ذلك الشعور، إلا أنه على الرغم من فتوته، لم يوله كبير اهتمام أو أنه كان يخاف ببساطة أن يأتيه من تلك المنطقة بالذات شر أكثر من الخير. تكور على نفسه في الزاوية ضاماً ساقيه إلى صدره، ونام على تلك الحال. أيقظته برودة الفجر، مدّ يده ليتلمس العباءة، ولاحظ أنه مازالت فيها بقايا رطوبة، وعلى الرغم من ذلك قرر أن يرتديها، ولتجف على بدنه. لم يرَ أحلاماً ولا كوابيس، نام كما يفترض بحجرٍ أن ينام، بلا وعي، وبلا مسؤولية، وبلا ذنب، وإن كانت أول كلمات قالها حين استيقظ، مع أول أضواء الصباح، لقد قتلت أخي. لو كانت الأزمنة أخرى، فربما كان سيبكي، ربما كان سيشعر باليأس، ربما كان سيلطم صدره ورأسه، ولكن لأن الأمور كانت على ما هي عليه، وكان العالم، عملياً، قد دُشن للتو، وكنا لا نزال نفتقر إلى كلمات كثيرة لنبدأ بمحاولة القول من نحن، ولم نكن نجد دوماً الكلمات التي تعبر عن ذلك بأفضل طريقة، ولهذا اكتفى بتكرار الكلمات التي نطق بها إلى أن فقدت

معناها ولم تعد سوى مجموعة أصوات لا صلة بينها، ولعثمات بلا معنى. عندئذ أدرك أنه حلم، لم يكن حلماً بالضبط، وإنما صورة فقط، إنها صورته وهو يعود إلى البيت ويجد أخاه بانتظاره عند عتبة الباب. وهكذا سيتذكره مدى الحياة، كما لو أنه قد تصالح مع جريمته وليس عليه أن يعاني المزيد من تأنيب الضمير.

خرج من الكوخ واستنشق الهواء البارد بعمق. لم تكن الشمس قد ولدت بعد، غير أن السماء كانت مضاءة بتدرج ألوان خفيفة، بما يكفي لأن يبدو المشهد القاحل والرتيب الماثل أمام عينيه، تحت أول أنوار الصباح، كما لو أنه قد تحول إلى نوع من جنة عدن بلا محظورات. لم يكن لدى قايين أي سبب لتوجيه خطواته في اتجاه محدد، ولكنه بحث غريزياً عن العلامات المتروكة قبل انعطافه نحو الكوخ الذي أمضى فيه الليل. كان ذلك سهلاً، ففي العمق كان يكفيه السير للقاء الشمس، نحو تلك الجهة، التي لن تتأخر الشمس طويلاً عن الإطلال منها. كانت معدته قد خففت من تشنجاتها، بعد أن هدأتها ساعات النوم، وسيكون جيداً أن تظل على تلك الحال، لأنه لا يُلمح أمل قريب بالعثور على طعام، على الرغم من مروره بين حين وآخر بإحدى أشجار التين، إلا أنها لم تكن تحمل ثماراً، لأن الموسم ليس موسمها. وببقايا طاقة يجهل أنه يمتلكها، جدد مسيره. ظهرت الشمس، لن يهطل اليوم مطر،

بل من الممكن أن يكون الجو حاراً. وبعد وقت غير طويل بدأ يشعر بأنه متعب من جديد. كان عليه أن يجد شيئاً يأكله، وإلا فإنه سينتهي إلى السقوط منهكاً في ذلك القفر، وسيتحول خلال أيام قليلة إلى عظام، وهذا ما ستتكفل به الطيور الجوارح أو قطيع من الكلاب المتوحشة التي لم تظهر له بعد حتى الآن. كان مكتوباً مع ذلك أن حياة قايين لن تنتهي هناك، لأنه ما كان هناك ما يستحق أن يضيع السيد وقتاً طويلاً في لعنه إن كان يريد له الموت في ذلك القفر. وقد جاءته الإشارة من أسفل، من قدميه المنهوكتين اللتين تأخرتا طويلاً في اكتشاف أن الأرض التي يطؤها صارت مختلفة، عارية من الخضرة، بلا أعشاب أو أشواك تعرقل المشي، وباختصار، ومن أجل قول ذلك كله بكلمات قليلة، كان قايين، دون أن يدري كيف أو متى، قد وجد درباً ممهداً. ابتهج التائه المسكين، فمن المعروف أن درباً للمرور، أو طريقاً، أو سبيلاً، أو مساراً، سيقود عاجلاً أو آجلاً، بعيداً أو قريباً، إلى مكان مأهول قد يتاح فيه العثور على عمل، وعلى سقف وكسرة خبز تقتل ذلك الجوع الشديد. شجعه الاكتشاف المفاجئ، فجعل، كما يقال، من أحشائه قلباً، واستجمع قوى لم تعد موجودة وغذ الخطى، منتظراً أن يجد أمامه بيتاً فيه علامات الحياة، أو رجلاً يمتطي حماراً، أو امرأة تحمل إناء على رأسها. ولكن كان عليه أن يمشي كثيراً. والشيخ المسن الذي ظهر أمامه أخيراً كان يمضي ماشياً على قدميه

ويقود نعجتين مربوطتين بحبل. حياه قايين بأشد الكلمات توددا في معجم مفرداته، ولكن الرجل لم يرد عليه، بل سأله، ما هذه العلامة التي على جبينك. ففوجئ قايين، وسأله بدوره، أية علامة. هذه، قال الرجل وهو يرفع يده إلى جبهته بالذات وأضاف، لابد أنك إنسان غير طيب، من قال لك هذا، وكيف تعرفه، ردّ عليه قايين بتهور، مثلما يقول المثل القديم، الشيطان رسم لك العلامة لعيب وجده فيك، لستُ أفضل ولا أسوأ من الآخرين، إنني أبحث عن عمل، قال قايين وهو يحاول توجيه الحديث نحو الموضوع المناسب له، العمل هنا متوافر، ما الذي تُحسن عمله، سأله العجوز، إنني مزارع، لدينا ما يكفي من المزارعين، ولن تحصل هنا على شيء، أضف إلى ذلك أنك آت وحدك، بلا أسرة، لقد أضعت أسرتي، أضعتها، كيف ذلك، لقد أضعتُها، هكذا ببساطة، وليس لدي المزيد لقوله، بما أن الأمر كذلك، سأتركك، لم يعجبني وجهك ولا العلامة التي على جبينك. وبدأ العجوز يبتعد، لكن قايين أوقفه، لا تذهب، وأخبرني على الأقل كيف تسمى هذه الأمكنة، يسمونها أرض نود، وما معنى نود، تعني أرض الهرب أو أرض التائهين، وأخبرني يا من وصلت إلى هنا، ما الذي تهرب منه ولماذا أنت تائه، لن أروي قصة حياتي لأول من ألتقي به في الطريق ومعه نعجتان مربوطتان بحبل، أضف إلى ذلك أنني لا أعرفك، ولست

مديناً لك بالاحترام وليس هناك ما يضطرني إلى الإجابة على أسئلتك، سنلتقي ثانية، من يدري، فقد لا أجد عملاً هنا واضطر إلى البحث عن قَدر آخر، إذا كنت قادراً على قولبة الطين وبناء جدار فسيكون هذا هو قدر، فسأله قايين، إلى أين عليّ الذهاب، تابع قُدماً في هذا الطريق، في آخره توجد ساحة، وهناك ستجد الجواب، وداعاً أيها الشيخ، الوداع، وعسى أن تصل أنت إلى مثل شيخوختي، وراء الكلمات التي تقولها يبدو لي سماع كلمات أخرى تصمت عنها، أجل، فهذه العلامة التي على جبهتك، مثلاً، ليست من الولادة، ولم تُحدثها أنت نفسك، لا شيء مما قيل هنا حقيقي، ربما تكون حقيقتي أكذوبة في نظرك، ممكن، أجل، فالشك هو امتياز من عاش طويلاً، وربما هذا هو السبب في أنك غير قادر على إقناعي في أن أتقبل كيقين ما له وقع الزيف، من تكون أنت، سأله قايين، حذار أيها الشاب، لأنك إذا أردت سؤالي عمن أكون، فإنك تعترف بحقي في معرفة من تكون أنت، لا شيء يجبرني على إخبارك، سوف تدخل هذه المدينة، وسوف تمكث هنا، وعاجلاً أو آجلاً سيُعرف كل شيء، عندما تصبح معرفته واجبة وليس من خلالي، أخبرني على الأقل ما اسمك، فقال قايين، اسمي هابيل.

بينما هابيل المزيف يمضي سائراً نحو الساحة حيث سيلتقي، حسب كلام الشيخ، بقدره، سنلتفت إلى الملاحظة المناسبة التي

يبديها بعض القراء المتيقظين، ممن هم منتبهون على الدوام، ويرون أن الحوار الذي انتهينا من تسجيله على أنه جرى هو أمر غير ممكن سواء من الناحية التاريخية أو الثقافية، إذ لا يمكن لفلاح، يملك القليل أو لا شيء من الأراضي، وشيخ مسن لا تُعرف له مهنة ولا منفعة أن يفكرا أو يتكلما على هذا النحو. ولدى هؤلاء القراء الحق، وإن كانت المسألة لا تعتمد كثيراً على امتلاك أو عدم امتلاك أفكار أو مفردات كافية للتعبير عنها، وإنما على قدرتنا على أن نتقبل، وإن يكن لمجرد تعاطف بشري وتساهل ثقافي، أن فلاحاً من أول عصور العالم وشيخاً معه نعجتان مربوطتان بحبل، بمحدودية معارفهما وبلغة لا تزال تخطو خطواتها الأولى، يجدان نفسيهما ببساطة مدفوعين إلى تجريب طرائق للتعبير عن هواجس وبديهيات هي ظاهرياً في غير متناول أيديهما. وعدم قولهما هذه الكلام هو أمر أكثر من جليّ، ولكن الشكوك، والحيرة، والتردد، والتقدم والتأخر في الحجج كانت موجودة هناك. وما فعلناه نحن، ببساطة، هو أننا نقلنا إلى البرتغالية السائدة كبديل لغموض لغة وفكر ذلك الزمان غير المفهومين بالنسبة إلينا. وإذا كانت الحصيلة متماسكة الآن، فلا بد أنها كانت كذلك آنذاك، لأننا، في نهاية المطاف مشاؤون، وعلى الطريق نمضي جميعنا، سواء الحكماء أو الجهلة.

ها هي ذي الساحة هناك. والحقيقة أن إطلاق تسمية مدينة

على المكان ينطوي على مبالغة. بعض البيوت الواطئة، غير المنتظمة، وبضعة أطفال يلعبون لا أدري أية ألعاب، وبعض البالغين يتحركون كمن يسيرون نياماً، وبعض الحمير التي يبدو أنها تذهب إلى حيث تشاء وليس إلى حيث يقتادونها، ولا يمكن لأي مدينة تفتخر بهذه التسمية أن ترى نفسها في المشهد البدائي الماثل أمام عيوننا، فهناك غياب للسيارات والحافلات، وللإشارات الضوئية وإشارات المرور، والممرات تحت الأرضية، والإعلانات على واجهات المباني أو على سطوح البيوت، وبكلمة واحدة، الحداثة، الحياة الحديثة. ولكن كل شيء يمضي قُدماً، فالتقدم، كما سيُعرف في ما بعد، لا يمكن تجنبه، إنه قدريٌّ مثل الموت. ومثل الحياة. في عمق المكان يُرى بناء قيد الإنجاز، نوع من القصر البدائي مؤلف من طابقين، لا شيء فيه من قصر مافرا، أو فرساي، أو باكينجهام، يعمل فيه عشرات البنائين والعمال المعاونين، وهؤلاء الأخيرون يحملون الطوب على ظهورهم، بينما يتولى أولئك الأولون صفه في صفوف منتظمة. لم يكن قايين يفهم أي شيء عن أعمال البناء العالية أو الواطئة، ولكن إذا كان قدره ينتظره هنا، فليس أمامه من مفر سوى مواجهته، مهما يمكن لدرجة مرارته أن تصل إليه، وهذا أمر لا يُعرف إلا في وقت متأخر جداً بحيث لا يعود من سبيل إلى التغيير. ولابد عندئذ من مواجهة قدره كرجل. أخفى بأفضل طريقة ممكنة ما يشعر به من

الجزع والجوع الذي يجعل ساقيه ترتجفان، وتقدم نحو وسط الساحة. وإذا كان العمال، بسبب جهل طبيعي، قد أساؤوا الظن به وحسبوه واحداً من أولئك الكسالى الذين يتوقفون في كافة عصور الإنسانية لرؤية الآخرين يعملون، إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن من هو هناك ليس سوى ضحية أخرى من ضحايا الأزمة، ومجرد بائس عاطل عن العمل يبحث عن خشبة خلاص. ودون أن يكون قايين مضطراً إلى التحدث عن سبب مجيئه، فقد أشاروا له إلى المسؤول الذي يراقب الجماعة، تكلم إليه، قالوا له. ذهب قايين إليه، صعد إلى منصة المراقب، وبعد تبادل التحيات المتعارف عليها، قال إنه يبحث عن عمل. فسأله المراقب، **ما** الذي تتقن عمله أنت، وأجابه قايين، **لا** أعرف من هذا الفن شيئاً، فأنا فلاح، ولكنني أتصور أنه يمكن لذراعين إضافيتين أخريين أن تنفعا في شيء ما، لسنا بحاجة لذراعيك، لأنك لا تعرف شيئاً من مهنة البناء، ولكن قد تكون قدماك نافعتين، قدماي، قال قايين مستغرباً، دون أن يفهم ما قيل له، أجل، قدماك، من أجل عجن الطين، آه، انتظر هنا، سوف أكلم رئيس العمال. وبينما هو ينصرف، التفت ليسأله، **ما** اسمك، **ها**بيل، أجابه قايين. لم يتأخر المراقب طويلاً، **ي**مكنك البدء بالعمل منذ الآن، سآخذك فوراً إلى معجن الطين، **كم** سيكون أجري، سأله قايين، **ع**اجنو الطين جميعهم ينالون الأجر

نفسه، أجل، ولكن كم سيكون أجري، هذا أمر ليس من اختصاصي، ولكنك إذا كنت تريد نصيحة جيدة على أي حال، فلا تسأل قبل البدء، لأنه أمر غير جيد، عليكَ أن تبين ما تساويه أولاً، وسأقول لك شيئاً آخر، عليك ألا تسأل عن أي شيء، انتظر إلى أن يدفعوا لك، إذا كنت ترى أن هذا هو الأفضل، فسوف أعمل به، ولكنه لا يبدو لي عادلاً، من غير المناسب هنا أن تكون عديم الصبر، فسأله قايين، لمن هي هذه المدينة، وما اسمها، أي اسم تعني، أتعني المدينة أم السيدة صاحبة الأمر هنا، كلتيهما، المدينة، إذا صحت هذه التسمية، مازالت بلا اسم، البعض يسمونها بطريقة، وآخرون يسمونها بطريقة أخرى، وهذه الأراضي على كل حال تسمى أراضي نود، أعرف ذلك، أخبرني به شيخ مسن التقيت به عند الوصول، شيخ معه نعجتان مربوطتان بحبل، سأل المراقب، نعم، إنه يُرى هنا أحياناً ولكنه لا يعيش هنا، والسيد هنا، من يكون، السيد هنا هو سيدة واسمها ليليث ، فسأله قايين، أليس لها زوج، أظن أنني سمعتُ أن اسمه نوا، ولكنها هي من تحكم القطيع، قال المراقب، ثم أعلن فوراً، هذا هو معجن الطين. جماعة من الرجال يشمرون جلابيبهم بعقدة فوق رُكبهم يدورون فوق طبقة سميكة من مزيج من الطين والقش والرمل، يدوسونها بقوة، وبطريقة تحولها إلى عجينة متماسكة قدر الإمكان دون

وسائط آلية مناسبة. لم يكن عملاً يحتاج إلى كثير من العلم، وإنما إلى ساقين متينتين وجيدتين، وإلى معدة مشبعة إن كان ذلك ممكناً، وهو أمر، مثلما نعلم، لا ينطبق على قايين. قال له المراقب، يمكنك الدخول، وما عليك أن تفعل إلا ما يفعله الآخرون، فقال قايين، منذ ثلاثة أيام لم أتناول طعاماً، وأخشى أن تخور قواي، وأسقط منهاراً هناك وسط الطين، تعال معي، ليس لدي ما أدفع به ثمن الطعام، ستدفع فيما بعد، تعال. ذهب الاثنان معاً إلى ما يشبه كشكاً يقوم في جانب من الساحة حيث يُباع الطعام. وكيلا نُثقل على الرواية بتفاصيل تاريخية يمكن تجاوزها، سنمضي دون التمعن في قائمة المأكولات المتواضعة، ومكوناتها التي لا نستطيع، من جهة أخرى، تحديد بعضها. كانت الأطعمة تبدو جيدة التتبيل، وقد أكل قايين بشهية تبعث معها رؤيته على الإعجاب. عندئذ سأله المراقب، ما هذه العلامة التي على جبينك، إنها لا تبدو طبيعية، قد لا تبدو كذلك، ولكنني ولدتُ بها، إنها تُعطي الانطباع بأن أحدهم قد علّمك بها، شيخ النعجتين قال لي الشيء نفسه، ولكنه كان مخطئاً، مثلما أنت مخطئ أيضاً، مادمت أنت تقول ذلك...، إنني أقوله وسأعيد قوله لما يتطلبه الأمر من مرات، ولكنني أفضل أن تتركوني بسلام، فلو كنتُ أعرج بدل امتلاك هذه العلامة، فلا أظن أنكم ستذكرونني بذلك طوال الوقت، معك

حق، ولن أعود لمضايقتك. أنت لا تضايقني في شيء، ولاسيما أنه عليّ أن أشكرك على مساعدتك التي توفرها لي، في العمل، وهذا الطعام الذي أعاد روحي إلى مكانها، وربما على شيء آخر أيضاً، أي شيء آخر، لا مكان لدي أنام فيه، يمكن حل هذه المسألة بسهولة، سوف أحصل لك على حصيرة، وهناك يوجد نزل، وسوف أتحدث إلى صاحبه، لا ريب في أنك سامري طيب، سامري، سأله المراقب مذهولاً، ما الذي يعنيه هذا، لا أدري، لقد خرجت مني الكلمة فجأة، دون تفكير، ولا أعرف معناها، لديك في رأسك أشياء أكثر مما يبديه مظهرك، هذا الجلباب قذر، سأقدم لك أحد جلابيبي، ويمكنك أن تستخدم جلبابك هذا في العمل، من خلال القليل الذي أعرفه عن هذا العالم، لا أظن أن هناك الكثير من البشر الطيبين، وقد كنتُ محظوظاً بالعثور على واحد منهم هنا، هل انتهيت من تناول الطعام، سأله المراقب بنبرة على شيء من الجفاء، كما لو أنه لا يرتاح للمديح، لا أستطيع أكل المزيد، ولا أذكر أنني أكلت في حياتي مقدار ما أكلت اليوم من الطعام، والآن إلى العمل. رجعا إلى القصر، وفي هذه المرة قدما من جهة الجزء المشيد قبل أعمال التوسع الجارية، ومن هناك رأيا على إحدى الشرفات امرأة ترتدي ملابس تمثل كل ما يجب أن يكون عليه ترف ذلك العصر، وتلك المرأة التي تبدو من بعيد باهرة الجمال، كانت

تنظر إليهما ذاهلة، كما لو أنها لا تراهما، من تكون، سأل قايين، إنها ليليث، سيدة القصر والمدينة، عسى ألا تضع عينيها عليك، لماذا، تُروى عنها أشياء، أية أشياء، يقال إنها ساحرة، وإنها قادرة بسحرها على حمل رجل إلى الجنون، أي سحر، سأله قايين، لا أعرفه ولا أريد معرفته، فأنا لستُ فضولياً، يكفيني أنني رأيت هنا رجلين أو ثلاثة رجال أقاموا تجارة جسدية معها، وماذا في ذلك، إنهم تعساء يستثيرون الشفقة، مجرد أشباح، مجرد ظلال لما كانوا عليه، لا بد أن تكون مجنوناً إذا فكرت في أنه يمكن لعاجن طين بقدميه أن ينام مع ملكة المدينة، أنت تعني سيدة المدينة، ملكة المدينة أو سيدتها، لا فرق في ذلك، يبدو واضحاً أنك لا تعرف النساء، إنهن قادرات على كل شيء، على اجتراح الأفضل والأسوأ حين يشأن، وهن خليقات جداً بازدراء تاج مقابل الذهاب إلى النهر من أجل غسل جلباب العشيق أو تذليل كل شيء وإذلال الجميع من أجل الجلوس على عرش، أتتكلم عن تجربة، سأله قايين، إنني أراقب وحسب، ولهذا أنا مراقب، ومع ذلك، لا بد أنكَ خضت تجربة ما، أجل، خضت تجربة ما، ولكنني طائر قصير الجناحين، من تلك الطيور التي تحلق منخفضة، أما أنا فلم أحلق ولو مرة واحدة، ألم تعرف نساء، سأله المراقب، لا، مازلتَ في الوقت المناسب، فأنت لا تزال شاباً. كانا أمام معجن

الطين. انتظرا أن يبدل الرجال المصطفين من وسط المعجن إلى أطرافه أمكنتهم، وقد كانوا يبدلون تلك الأمكنة بين حين وآخر، فيخرج من هم في الوسط إلى الجوانب ومن هم في الجوانب إلى الوسط، وينتهون من الدوران ليصلوا إلى أمكنتهم. عندئذ قال له المراقب وهو يلمس كتفه، ادخل الآن.

والكلمات، مثل كل شيء، لها ماذا(تها)، وكيف(اتها)، ولماذا(تها). بعضها، مهيبة، تدعونا بمظهر من التفخيم، مضفية أهمية على نفسها، كما لو أنها مكرسة لأمور عظيمة، ثم يُرى فيما بعد أنها ليست أكثر من نسمة خفيفة لا تتمكن من تحريك ذراع في مروحة طاحونة، بينما كلمات أخرى، من أكثر الكلمات عادية، من الكلمات المعهودة، كلمات كل يوم، ينتهي بها الأمر إلى اكتساب نتائج لا يتجرأ أحد على التنبؤ بها، فهي لم تولد من أجل هذا، ومع ذلك، تهز العالم. لقد قال له المراقب، ادخل، وكان ذلك كأن يقول له اذهب لعجن الطين بقدميك، اذهب لكسب لقمة عيشك، ولكن هذه الكلمة نفسها هي التي انتهت ليليث، بعد أسابيع، إلى النطق بها حرفاً فحرفاً، بعد أن أمرت باستدعاء الرجل الذي قيل لها إن اسمه هابيل، ادخل. وبالنسبة لامرأة مشهورة بالمثابرة عندما يتعلق الأمر بالبحث عن إشباع شهواتها، قد يبدو مستغرباً تأخرها أسابيع في فتح باب حجرتها له، ولكن هناك تفسير حتى لهذا الأمر، كما سيُرى

لاحقاً. وخلال ذلك الوقت، لم يكن بإمكان قايين أن يتصور مجرد تصور أية أفكار كانت تغذي تلك المرأة عندما بدأت تأتي، في أول الأمر برفقة بطانتها من الحراس والعبيد والخدم الآخرين، إلى معجن الطين. أتكون مثل أولئك الملاكين الريفيين طيبي المزاج الذين يذهبون إلى الريف لإبداء الاهتمام بجهد من يعملون من أجلهم، وتشجيعهم بزيارتهم التي لا تخلو من كلمة مشجعة، وفي بعض الأحيان، في أحسن الحالات، دعابة رفاقية تجعل الجميع، برغبة أو دون رغبة، يضحكون. لم تكن ليليث تتكلم، اللهم إلا مع مراقب المكان، تطلب منه معلومات عن سير العمل، وبين حين وآخر، وظاهرياً من أجل مواصلة المحادثة، تستفسر حول أصل العمال الآتين من الخارج، ذاك الذي يمضي هناك مثلاً، **لا** أدري من أين هو آتٍ يا سيدتي، فعندما سألته، لأنه من الطبيعي أن أرغب في معرفة مع من نتعامل، أشار إلى جهة الغروب ونطق كلمتين، لا شيء سوى كلمتين، وأي كلمتين هما، **من** هناك يا سيدتي، ألم يقل شيئاً حول الأسباب التي دفعته إلى ترك أرضه، **لا** يا سيدتي، وما هو اسمه، **هابيل** يا سيدتي، قال إن اسمه هابيل، **هل** هو عامل جيد، أجل يا سيدتي، إنه ممن يتكلمون قليلاً وينجزون واجباتهم على أحسن وجه، وماذا عن الإشارة التي في جبهته، ما حقيقتها، لقد سألته عنها أيضاً وقال لي إنها منذ الولادة، أي أننا لا نعرف شيئاً عن هذا المدعو

هابيل القادم من جهة الغروب، ليس هو وحده يا سيدتي، فإذا استبعدنا من هم من هنا ونعرفهم إلى هذا الحد أو ذاك، فإن الآخرين جميعهم قصص تحتاج لأن تروى، متشردون، لصوص، وهم على العموم أشخاص قليلو الكلام، ربما يبوحون بشيء في ما بينهم، ولكن لا نستطيع التأكد حتى من هذا الأمر، وصاحب تلك الإشارة، كيف يتصرف، أنا أرى أنه يتصرف كمن لا يريد أن يلحظ أحد وجوده، ولكنني لحظتُ وجوده، دمدمت ليليث متكلمة لنفسها. بعد أيام من ذلك حضر إلى معجن الطين مبعوث من القصر سأل قايين إن كانت له مهنة ما. فأجاب قايين بأنه في زمن مضى كان فلاحاً ووجد نفسه مضطراً لترك أرضه بسبب سوء المحاصيل. حمل المبعوث المعلومات ثم رجع بعد ثلاثة أيام لينقل الأمر بأنه على عاجن الطين هابيل أن يمثل فوراً في القصر. وبالحال التي هو عليها، بجلبابه القديم المتسخ الذي صار أشبه بأسمال رثة، تبع قايين المبعوث بعد أن نظف ساقيه من الوحل بأفضل ما استطاع. دخلا إلى القصر من بوابة جانبية ضيقة تفضي إلى ردهة صغيرة حيث كانت امرأتان بانتظاره. انسحب المبعوث وذهب للإخبار بأن عاجن الطين صار في القصر ووضع تحت رعاية جاريتين. اقتادت الجاريتان قايين إلى حجرة منفصلة، حيث جرى خلع ملابسه عنه ثم غسله من قدميه حتى رأسه بماء فاتر. تسببت ملامسة أيدي المرأتين المتواصلة والحساسة

بانتصاب لم يستطع كبحه، معتقداً أنه من الممكن اجتراح مثل تلك المأثرة. ضحكت المرأتان من محاولته وشددتا، رداً على ذلك، من الاهتمام بالعضو الذي كانتا تسميانه ضاحكتين الناي الصامت، وفجأة نفر من بين أيديهما بمرونة ثعبان. والنتيجة، بالنظر إلى الظروف، كانت أكثر من متوقعة، فقد قذف الرجل فجأة في دفقات متتالية، تلقتها الجاريتان الجاثيتان على وجهيهما وفميهما. عندئذ أضاء وميض مفاجئ ذهن قايين، فلهذا السبب ذهبوا في طلبه من معجن الطين، ولكن ليس لإرضاء نزوات جاريتين عاديتين، يُفترض أن تتلقيا ملذات أخرى تناسب شرطهما. لقد سقط تنبيه مراقب البنائين الحذر في كيس مثقوب، وانتهى الأمر بقايين إلى وضع قدمه على حافة المصيدة التي تدفعه إليها سيدة القصر برفق، دون تعجل، ودون أن يلحظ ذلك تقريباً، كما لو أنه ساه في غيمة عابرة ومستغرق الفكر في أمر آخر. لقد أُقر تأخير الضربة النهائية عن قصد لمنح وقت للمني المهدور على الأرض بما يشبه المصادفة للتمكن من أن يبرعم ويزهر من تلقاء ذاته. أما بالنسبة للثمر، فكان واضحاً أنه لن ينتظر طويلاً من أجل الحصاد. فقد بدا أن الجاريتين ليستا مستعجلتين، وكانتا تركزان الآن على استخراج آخر القطرات من عضو قايين وحملها إلى فميهما على رأس أحد أصابعهما، واحدة بعد أخرى، بتلذذ. كل شيء ينتهي، أجل، فلكل شيء نهايته،

عباءة جديدة تغطي عري الرجل، إنها الساعة، وهذه كلمة مغلوطة تاريخياً أكثر من جميع الكلمات الأخرى في ذلك التاريخ التوارتي، لاقتياده ليمثل أمام سيدة القصر التي ستقرر قدره. كان المبعوث ينتظر في الردهة، وكانت نظرة بسيطة منه كافية ليخمن ما جرى خلال عملية الاستحمام، ولكنه لم يستغرب، لأن المبعوثين، لأسباب تتعلق بالمهنة، يرون عوالم كثيرة، وليس هناك ما يفاجئهم. أضف إلى ذلك، ومثلما كان معروفاً في ذلك العصر، فإن الجسد ضعيف إلى أقصى الحدود، وليس الذنب ذنبه في ذلك، إذ إن الروح التي يتمثل واجبها، من حيث المبدأ، في إقامة حاجز ضد كافة الإغراءات، هي على الدوام أول من يتراجع، وأول من يرفع راية الاستسلام البيضاء. كان يعرف إلى أين يجري اقتياد عاجن الطين هابيل، إلى أين ولماذا، ولكنه لا يحسده، على عكس واقعة الجاريتين الداعرة التي كانت، وهذا صحيح، تسبب اضطراباً في دورته الدموية. كان الدخول إلى القصر، في هذه المرة، من البوابة الرئيسية، لأنه لا وجود لما يمارس خفية هنا، وإذا كانت السيدة ليليث قد عثرت على عشيق جديد، فمن الأفضل أن يُعرف ذلك، كيلا تُحاك شبكة متكاملة من الأسرار والتقولات، وشبكة متكاملة من الضحك والتهامس، مثلما يحدث حتماً في ثقافات وحضارات أخرى. أمر المبعوث جارية أخرى كانت تنتظر في الجانب الخارجي من باب

قاعة الانتظار، اذهبي وأخبري سيدتك بأننا هنا. ذهبت الخادمة ثم رجعت بالرسالة، تعال معي، قالت لقايين، ثم توجهت إلى المبعوث، أما أنت فانصرف، لم تعد ثمة حاجة إليك، وهذا أمر يعرف المبعوثون الكثير عنه. كانت ليليث تجلس على كرسي بلا مسند من خشب مزين بأعمال حفر، وترتدي ثوباً لا بد أنه يساوي بوتوسي[1]، ثوب يعرض دون أي عفة فتحة صدر تكشف عن أول انحناءة تكور في النهدين وتتيح حدس البقية. كانت الجارية قد انسحبت، وظلا وحيدين. ألقت ليليث نظرة متفحصة على الرجل، وبدا أنها توافق على ما تراه، ثم قالت أخيراً، ستظلُ طوال الوقت في قاعة الانتظار هذه، في النهار والليل، فيها سريرك الضيق ومقعد تجلس عليه، وستكون، إلى أن أبدل رأيي، حارس بوابتي، تمنعُ دخول أي شخص، أياً يكن، إلى حجرتي، باستثناء الجاريات اللاتي يأتين للتنظيف والترتيب، أمنعُ أياً يكن يا سيدتي، سألها قايين دون نية ظاهرة، أرى أنكَ ذكي، وإذا كنت تفكر في زوجي، فأقول لك أجل، فحتى هو غير مخول بالدخول، ولكنه يعرف ذلك، ولن تكون مضطراً لأن تقوله له، وإذا ما أراد ذات يوم اقتحام الباب

---

[1] بوتوسي: مدينة بوليفية، كانت من أغنى مدن أميركا اللاتينية في زمن الاستعمار الإسباني، بسبب ضخامة كميات الفضة المستخرجة من مناجمها، حتى صار يقال عن كل شيء ثمين إنه «يساوي بوتوسي».

بالرغم من ذلك، أنتَ رجل قوي، وتعرف كيف تمنعه، **لا** أستطيع أن أواجه بالقوة من هو سيد المدينة، وبالتالي سيد حياتي، **بل** تستطيع إن أمرتُك أنا بذلك، ولكن العواقب ستقع على رأسي عاجلاً أو آجلاً، **هذا** أمر، يا عزيزي الشاب، لا يمكن لأحد في الدنيا أن يفلت منه، أما إذا كنت جباناً، وتساورك الشكوك أو الضعف، فالعلاج سهل جداً، ستعود إلى مخاضة الطين، لم أفكر قطّ في أن عجن الطين سيكون قدري، ولستُ أعرف أيضاً إن كنتَ ستظل، إلى الأبد، حارساً لباب حجرة ليليث، **يكفي** أن أكون كذلك في هذه اللحظة يا سيدتي، أحسنتَ القول، أنتَ تستحق قُبلة بسبب هذه الكلمات وحدها. لم يجب قايين، فقد كان تفكيره منصباً على صوت مراقب البنائين، **كن** حذراً، يقال إنها ساحرة، وإنها قادرة بسحرها على حمل رجل إلى الجنون. **بماذا** تفكر، سألته ليليث، **لا** شيء يا سيدتي، فأنا عاجز عن التفكير أمامكِ، أنظر إليكِ وأُعجبُ بكِ، ولا شيء سوى ذلك، ربما تستحق قبلة ثانية، إنني جاهز يا سيدتي، أما أنا فلستُ بعد أيها البواب. نهضت، وسوت طيات ثوبها وتركت يديها تنزلان ببطء على جسدها، كما لو أنها تداعب نفسها، النهدان في البدء، ثم البطن، وبعد ذلك أصل الفخذين، حيث توقفت، وقد فعلت ذلك كله بينما هي تنظر إلى الرجل بثبات، دون أي تعبير، كما لو أنها تمثال.

لقد كانت الجاريتان المتحررتان من الكوابح الأخلاقية تضحكان بسعادة مطلقة، أقرب إلى البراءة، بينما هما تلهوان بمداعبة جسد الرجل، وكانتا تشاركان في لعبة إيروتيكية تعرفان كافة أحكامها ومخالفاتها، أما هنا، في قاعة الانتظار هذه، حيث لا ينفذ أي صوت خارجي، فإن ليليث وقايين يبدوان كمعلمي مبارزة يشهران سيفيهما من أجل مبارزة حتى الموت. ليليث لم تعد موجودة، فقد دخلت إلى الحجرة وأغلقت الباب، وقايين ينظر في ما حوله ولا يجد ملجأً سوى المقعد الذي خُصص له. وعليه جلس وقد أصابه الرعب من هاجس الأيام الآتية. أحس أنه أسير، هي نفسها قالت ذلك، ستظلُ هنا، في النهار والليل، ولم ينقصها إلا أن تضيف، ستكون، حين أقرر أنا ذلك، الثور الذي يسفدني، وهي كلمة ما كانت ستبدو فجة وحسب، وإنما لا تنطبق على الحالة، باعتبار أن السفاد، في المبدأ، هو شأن من شؤون الحيوانات رباعية القوائم، وليس الكائنات البشرية، وإن تكن الكلمة مناسبة جداً هنا، لأن هؤلاء كانوا رباعيي القوائم مثل أولئك، وجميعنا نعرف أن ما نسميه الآن أذرعاً وأرجلاً لم تكن جميعها سوى أرجل على امتداد زمن طويل، إلى أن خطر لأحدهم أن يقول لبشر المستقبل، انهضوا، فقد حانت لحظة انتصابكم. وكان قايين أيضاً يتساءل إن لم تكن تلك هي لحظة الهروب من هناك قبل فوات الأوان، ولكن

التساؤل مجرد كلام فارغ، فهو يعرف جيداً أنه لن يهرب، لأن في تلك الحجرة امرأة يبدو أنها تستمتع باختباره في مبارزات متتالية، ولكنها ستقول له ذات يوم، **ادخل**، وسوف يدخل، وبدخوله سينتقل من سجن إلى آخر. أنا لم أولد من أجل هذا، يفكر قايين. ولكنه لم يولد أيضاً من أجل قتل أخيه، ومع ذلك فقد تركت الجثة في الحقل يملأ الذباب عينيها وفمها، كما أن هابيل، لم يولد أيضاً من أجل هذا المصير. كان قايين يقلّب الحياة في رأسه ولا يجد لها تفسيراً، فانظر هذه المرأة مثلاً، على الرغم من أنها مريضة بالشهوة، مثلما يمكن تبين ذلك بسهولة، إلا أنها تستمتع بتأخير لحظة الاستسلام، وهذه كلمة غير مناسبة أيضاً، لأن ليليث، عندما ستفتح ساقيها أخيراً لتتركه يولج فيها، لن تكون في حالة استسلام، بل ستكون في حالة التهام للرجل الذي تقول له، **ادخل**.

5

دخل قايين، ونام قايين في فراش ليليث، ومهما بدا لنا الأمر غير معقول، فقد كان انعدام خبرته في الجنس هو ما منعه من الغرق في إعصار الفجور الذي أخرج المرأة عن طورها وجعلها تصرخ كممسوسة. كانت أسنانها تصطك، تعض الوسادة، ثم كتف الرجل، وترتشف دمه. وكان قايين المُجِدّ يبذل جهده فوق جسدها، حائراً حيال تلك الحركات والأصوات المؤثرة، ولكن قايين آخر، غيره، كان يراقب اللوحة، في الوقت نفسه، بفضول، ببرود تقريباً، هياج الأعضاء الذي لا يمكن كبحه، تلويات جسدها أو جسده نفسه، والأوضاع التي يتطلبها الجماع أو يفرضها عليهما، حتى ذروة النشوة. لم ينم العشيقان كثيراً في تلك الليلة الأولى. ولا في الليلة الثانية، ولا الثالثة، ولا في الليالي التي تلت كلها، كانت ليليث لا ترتوي، وبدا أن قوى قايين لا تنضب، وكان الفاصل بين كل انتصابين وقذفين قصيراً، لا يكاد يذكر، حتى يمكن القول إن كليهما كانا في فردوس الله الآتي. وفي إحدى تلك الليالي، وبعد أن نقل عبدٌ موثوق إلى نوا، سيد

المدينة وزوج ليليث، الخبر عن أن شيئاً استثنائياً يجري هناك، دخل نوا إلى قاعة الانتظار. لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك. فنوا زوج من أكثر الأزواج تسامحاً، وقد كان طيلة حياة مشتركة كاملة، كما يقال عادة، عاجزاً عن صنع ابن للمرأة، وقد كان وعي ذلك الازدراء المتواصل، وربما الأمل أيضاً في أن ينتهي الأمر بليليث إلى الحبل من عاشق عابر، وتقدم له أخيراً ابناً يستطيع تسميته وريثاً له، هو ما جعله يتبنى، دون أن يعي ذلك تقريباً، هذا الموقف من التنازل الزوجي الذي تحول، مع مرور الوقت، إلى طريقة مريحة في العيش، لا تعكرها إلا المرات النادرة التي تقرر فيها ليليث، يحركها ما نتخيل أنه الشفقة الأنثوية المشهورة، الذهاب إلى حجرة زوجها من أجل تواصل عابر وغير مُرض لا يلزم أياً منهما، فلا هو قادر على المطالبة بأكثر مما أعطيَ إليه، ولا هي مستعدة لأن تعترف له بذلك الحق. ومع ذلك، لم تسمح ليليث قطّ لنوا بالدخول إلى حجرتها. وفي هذه اللحظة، على الرغم من أن الباب كان مغلقاً، إلا أن احتدام عواطف الرفيقين الإيروتيكية كانت تصل إلى الرجل المسكين كأنها صفعات متتالية، مفسحة المجال لولادة شعور مفاجئ لم يعرفه من قبل، حقد غير محدود تجاه الفارس الذي يمتطي الفرس ليليث ويجعلها تصهل كما لم تصهل من قبل. سأقتله، قال نوا لنفسه، دون التفكير في عواقب الفعلة، في كيف سيكون،

على سبيل المثال، رد فعل ليليث إذا ما قتل عشيقها المفضل. سأقتلهما، ألح نوا موسعاً الآن من نيته، سأقتله وأقتلها. أحلام، أوهام، هذيانات، فنوا لن يقتل أحداً وسيكون هو نفسه محظوظاً بالإفلات من الموت دون أن يفعل شيئاً لتجنبه. لم يعد يأتي من الحجرة الآن أي صوت، ولكن ذلك لا يعني أن حفلة الجسدين قد انتهت، وإنما كان الموسيقيان يستريحان قليلاً فقط، ولن تلبث الأوركسترا أن تنقض على الرقصة التالية، على عنف مقطع التشديد الأخير. كان نوا قد انسحب حاملاً معه مشاريعه في الانتقام التي يداعبها كما لو أنه يهدهد جسد ليليث بعيد المنال. ولنر كيف سينتهي هذا كله.

بعد ما صار مكتوباً، من الطبيعي أن يخطر لأكثر من شخص أن يتساءل عما إذا لم يكن قايين قد تعب، وقد اعتُصر حتى النخاع على يد العشيقة الشرهة. لقد كان متعباً، ومعصوراً كذلك، وشاحباً كما لو أنه على حافة انطفاء الحياة فيه. صحيح أن الشحوب ليس سوى نتيجة لانعدام التعرض للشمس، والحرمان من الهواء الطلق الذي يتيح نمو النباتات ويذهِّب بشرة الأشخاص. وعلى كل حال، من رأى ذلك الرجل قبل دخوله حجرة ليليث، وتوزع وقته كله بين قاعة الانتظار والجماع، سيقول دون ريب، وسيردد، دون أن يدري، كلمات مراقب البنائين، لقد تحول إلى شبح، إلى ظل حقيقي. وهذا ما انتهت

إلى الانتباه إليه المتسببة الرئيسية في ذلك الوضع، يبدو على وجهك أنك في حالة سيئة، قالت له، إنني بخير، أجاب قايين، قد تكون كذلك، ولكن وجهكَ يقول العكس، لا أهمية لذلك، بل له أهمية، وابتداء من الآن ستقوم بنزهة كل يوم، وستأخذ معك عبداً كيلا يضايقك أحد، أريد أن أراك بالوجه الذي رأيتك فيه وأنت في مخاضة الطين، لا مشيئة لي إلا ما تشائين أنتِ يا سيدتي. قامت ليليث نفسها باختيار العبد المرافق، ولكن ما لم تكن تعرفه هو أن ذلك العبد عميل مزدوج وأنه على الرغم من وجوده في خدمتها من وجهة النظر الإدارية، إلا أنه يتلقى الأوامر من نوا. فلنخشَ إذاً حدوث الأسوأ. في خروجهما الأول، لم يعكر النزهة أي حادث، فالعبد يمشي طوال الوقت على مسافة خطوة وراء قايين، متيقظاً على الدوام لما يقوله له، ويتبعه في الجولة عبر درب يعتبره الأفضل خارج أسوار المدينة. وبالتالي لم تكن هناك مسوغات للقلق. إلى أن جاء يوم حضرت فيه أسباب القلق كلها معاً على صورة ثلاثة رجال انقضوا عليهما في الطريق، وكان العبد الخائن، كما تبين قايين، جزءاً من عصابتهم. ماذا تريدون، سألهم قايين. لم يجب الرجال على سؤاله. وكانوا جميعهم مسلحين، من يبدو أنه الزعيم كان يحمل سيفاً، بينما الآخرون مسلحون بخناجر. ماذا تريدون، أعاد قايين السؤال. فجاءه الرد من سيف الفولاذ الموجه

فجأة إلى صدره، نريد قتلك، قال الرجل متقدماً، لماذا، سأله قايين، لأن أيامك انتهت، لا يمكنك قتلي، قال قايين، ثم أضاف، العلامة التي على جبيني لن تتيح لك قتلي، أية علامة، سأله الرجل الذي كان حسير النظر كما يبدو، هذه العلامة، أشار قايين، آه، أجل، لقد رأيتها، ولكن ما لا أراه هو كيف يمكن لهذه الإشارة الحيلولة دون قتلك، ليست إشارة، بل علامة، ومن الذي أحدثها لك، هل أحدثتها أنت نفسك، سأله الآخر، لا، من أحدثها هو السيد، أي سيد، السيد الإله. أطلق الرجل قهقهة رد عليها الآخرون، بمن فيهم العبد الخائن، بجوقة ضحك متحمسة. من يضحكون يبكون، قال قايين، ثم توجه إلى زعيم الجماعة، هل لك أسرة، سأله، لماذا تريد معرفة ذلك، هل لك أبناء، وامرأة، أب وأم أحياء، وأقرباء آخرون، نعم، ولكن...، فقاطعه قايين، لستَ بحاجة لأن تقتلني من أجل تعريضهم للعقاب، فالسيف الذي في يدك قد أدانكم، إنها كلمة السيد، لا تظن أنك ستنجو بمثل هذه الأكاذيب، صرخ به الرجل وتقدم شاهراً سيفه. وفي تلك اللحظة بالذات تحول السلاح إلى ثعبان أفلتته الرجل من يده مذعوراً، فقال له قايين، هاأنتذا ترى، شعرتَ بأنه ثعبان وهو ليس سوى سيف. ثم انحنى والتقط السلاح من مقبضه، يمكنني أن أقتلك الآن بالذات، ولن يهرع أحد لمساعدتك، فرفاقك قد هربوا،

وكذلك الخائن الذي كان معي، اصفح عني، توسل إليه الرجل وهو يجثو على ركبتيه، السيد وحده يستطيع الصفح عنك إذا أراد، أما أنا فلا، انصرف، وستنال في بيتك الأجر على نذالتك. ابتعد الرجل مطأطئاً رأسه، باكياً، مرتعشاً، ونادماً ألف مرة لاختياره مهنة قاطع طريق باختصاص قاتل. ورجع قايين إلى المدينة، مكرراً الخطوات التي سارها في المرة الأولى. ومثلما حدث آنذاك، وجد نفسه، حين انعطف عند الناصية، وجهاً لوجه مع العجوز والنعجتين المربوطتين بحبل. لقد تغيرتَ كثيراً، لم تعد تشبه في شيء المتشرد الآتي من جهة الغروب أو عاجن الطين بقدميه، قال العجوز، إنني بواب، أجاب قايين، وواصل طريقه، بواب على أي باب، سأله العجوز بلهجة أرادها ساخرة ولكنها صدرت برنة غيظ، إذا كنتَ تعرف ذلك فلا تُتعب نفسك بالسؤال، تنقصني التفاصيل، وفي التفاصيل يكمن الملح، اشنق نفسك بها، فالحبل متوفر لك، ثم أنهى قايين، وهذه أفضل طريقة كيلا أعود لرؤيتك. ولكن العجوز صرخ مع ذلك، سوف تظل تراني حتى نهاية أيامك، ليس لأيامي من نهاية، وفي أثناء ذلك عليك أن تنتبه جيداً كيلا تأكل النعجتان الحبل، هذا هو مسوغ وجودي، مع أن النعجتين لا تفكران في شيء آخر.

لم تكن ليليث في الحجرة، وإنما كانت على الشرفة، عارية،

مثلما هي عادتها، تعرض جسدها للشمس. وبينما هو جالس على مقعده الوحيد، قام قايين بمراجعة، بالتأمل في ما حدث. بدا له واضحاً أن العبد قد قاده متعمداً عبر ذلك الدرب ليلتقي بقطاع الطريق الذين ينتظرون، ولا بد أن هناك بالتالي من وضع خطة للقضاء عليه. ولم يكن صعباً بأي حال معرفة من نسميه في هذه الأيام العقل المدبر لمحاولة القتل المحبطة. إنه نوا، قال قايين، لا بد أن يكون هو، فليس هناك، في القصر أو المدينة، من له مصلحة في اختفائي سواه. وفي تلك اللحظة كانت ليليث تدخل إلى قاعة الانتظار وقالت، لم تدم نزهتكَ إلا قليلاً. كانت طبقة خفيفة من العرق تلمع على كتفيها، وكانت شهية مثل رمانة ناضجة، مثل ثمرة تين يانعة تنز منها أولى قطرات العسل. حتى إنه خطر لذهن قايين أن يسحبها إلى الفراش، ولكنه تخلى عن الفكرة، فلديه في هذه المرة مسائل جدية تجب معالجتها، وربما يفعل ذلك في ما بعد. لقد حاولوا قتلي، قال، حاولوا قتلك، من تعني، سألته ليليث بدهشة، العبد الذي أرسلتِه معي وبعض قطاع الطريق المأجورين، ما الذي حدث، أخبرني، قادني العبد عبر طريق خارج المدينة، وهناك وقع الهجوم، هل أصابوكَ بأذى، هل جرحوكَ، لا، كيف تمكنتَ من الإفلات منهم، أنا شخص لا يمكن لهم أن يقتلوه، قال قايين بجد، ستكون الشخص الوحيد الذي يؤمن بهذا في العالم، وهو كذلك.

ساد صمت قطعه قايين، لست أدعى هابيل، قال، اسمي هو قايين، يروقني هذا الاسم أكثر من الآخر، قالت ليليث باذلة الجهد للحفاظ على المحادثة بلهجة خفيفة، وهو هدف أطاح به قايين في اللحظة التالية، هابيل هو اسم أخي، وقد قتلته لأن السيد تغاضى عني لمصلحته، واتخذتُ اسمه كي أخفي حقيقة هويتي، هنا لا يهمنا في شيء أن تكون قايين أو هابيل، فخبر جريمتك لم يصلنا قطّ، أجل، اليوم أدرك ذلك، أخبرني إذاً بما جرى، ألا تخافينني، ألا أسبب لكِ الاشمئزاز، سألها قايين، أنت الرجل الذي اخترته لفراشي ومن سأنام معه بعد قليل. عندئذ فتح قايين صندوق الأسرار وروى لها الحادث بكل تفاصيله، دون أن ينسى ذكر الذباب على عيني هابيل وفمه، وكذلك الكلمات التي قالها السيد، والوعد المُلغَز الذي تعهد فيه بحمايته من ميتة عنيفة، وقال قايين، لا تسأليني كيف، ولا لماذا فعل ذلك، لأنه لم يخبرني ولا أظن أنه أمر يمكن تفسيره، فقالت ليليث، أنا يكفيني أنك مازلتَ حياً وبين ذراعي، هل ترين فيّ مجرماً لا يمكن التسامح معه أبداً، سألها قايين، فأجابته، لا، أرى فيكَ رجلاً أثار السيد حفيظته، وبعد أن عرفتُ الآن كيف هو اسمكَ حقاً فلنذهب إلى الفراش، وإلا سوف أحترق هنا من الشهوة إذا لم تسعفني، فقد كنتَ هابيل الذي عرفته بين ملاءات فراشي، وأنتَ الآن قايين الذي أحتاج

لمعرفته. وبعدما تراجع هذيان المجامعات المتكررة والمتنوعة مفسحاً المجال للاستراحة، ولتراخي الجسدين الكامل، قالت ليليث، إنه نوا، هذا ما أظنه أيضاً، أظن أنه نوا، وافقها قايين وأضاف، لا أجد شخصاً آخر في القصر أو في المدينة يمكن له أن يرغب في رؤيتي ميتاً أكثر منه، عندما ننهض سوف أستدعيه، وستسمعُ ما عليّ أن أقوله له. ناما قليلاً لتوفير شيء من الراحة لأعضائهما المتعبة، واستيقظا في الوقت نفسه تقريباً، وقالت له ليليث بينما هي تقف منتصبة، فلتظلَ مستلقياً، لأنه لن يدخل إلى هنا. ثم استدعت جارية لتساعدها في ارتداء ملابسها، وبعد ذلك أرسلت الجارية نفسها لتطلب من نوا المجيء للتحدث معها. جلست تنتظر في ردهة الانتظار، وعندما دخل زوجها قالت له دون مقدمات، سوف تأمر بقتل العبد الذي منحتني إياه لمرافقة قايين في نزهاته، من هو قايين، سألها نوا متفاجئاً بهذا الأمر الجديد، قايين كان هابيل، وهو الآن قايين، وسوف تقتل أيضاً الرجال الذين نصبوا الكمين، وأين هو قايين، مادام قد صار هذا اسمه، لقد نجا وهو بأمان في حجرتي. ساد صمت يمكن تلمسه بالأصابع، وأخيراً قال نوا، لم تكن لي أية علاقة بما تقولين إنه قد حدث، حذار يا نوا، الكذب هو أسوأ أشكال الجبن، لستُ كاذباً، إنك جبان وكاذب، فأنت من أشار على العبد أن يفعل ما فعله، وأين وكيف يفعل ذلك، وهذا العبد

نفسه هو بالتأكيد من تجسس لك على أفعالي، ولكنه تجسس دون طائل في الحقيقة، لأن ما أفعله، أفعله في وضح النهار، إنني زوجكِ وعليكِ أن تحترميني، من الممكن أن تكون محقاً، ففي الواقع عليّ أن أحترمك، ما الذي تنتظرينه إذاً، سألها نوا متظاهراً بسخط أبعد ما يكون عن الشعور به في ظل خوفه من الاتهامات الموجهة إليه، لستُ بانتظار أي شيء، فأنا لا أحترمك بكل بساطة، إنني عشيق سيء، لم أوفر لك الابن الذي ترغبين فيه، أليست هذه هي المسألة، سألها نوا، كان يمكن لكَ أن تكون عشيقاً من الطراز الأول، وكان يمكن لك أن لا تمنحني ابناً واحداً وحسب، بل عشرة أبناء، ومع ذلك ما كنتُ سأحترمك، لماذا، سوف أفكر في الأمر، وعندما اكتشف الأسباب التي تحول دون شعوري بأدنى احترام لك سوف أستدعيك، أعدك بأنك ستكون أول من يعرف ذلك، والآن أطلب منك الانصراف، فأنا منهوكة وأحتاج إلى الراحة. بدأ نوا بالابتعاد، ولكنها ألحت عليه، هناك أمر آخر، عندما تعتقل ذلك الخائن اللعين، وآمل ألا تتأخر كثيراً ـــ فهذه نصيحة تساعدك ـ أخبرني كي أشهد موته، أما رؤية موت الآخرين فلا تهمني، سأفعل ذلك، ووضع قدمه على عتبة الباب وهو لا يزال يسمع كلمات المرأة الأخيرة، وفي حالة وجود تعذيب، أريد أن أكون حاضرة. وحين رجعت ليليث إلى الحجرة، سألت قايين،

هل سمعت، أجل، وما هو رأيك، **لا** شك في ذلك، فهو من أمرهم بقتلي، حتى إنه لم يستطع الإتيان بأي رد فعل يصدر عن شخص بريء. اندست ليليث في الفراش، ولكنها لم تقترب من قابيل. كانت مستلقية على ظهرها بينما عيناها مفتوحتان تنظران إلى السقف، وفجأة قالت، لدي فكرة، **ما** هي، قتل نوا، **هذا** جنون، حماقة بلا أساس ولا رأس، انزعي هذه الفكرة السخيفة من رأسكِ، أرجوكِ، سخيفة، لماذا هي سخيفة، سنتحرر منه، سنتزوج، وستصير أنت سيد المدينة الجديد وسأكون أنا ملكتك وجاريتك المفضلة، من تقبّل الأرض التي تطؤها قدماك، من تتلقى، إذا تطلب الأمر، برازك بيديها، ومن الذي سيقتله، أنتَ، **لا** يا ليليث، لا تطلبي مني ذلك، لا تأمريني بذلك، فقد نلت حصتي من القتل، ألن تفعل ذلك من أجلي، ألا تحبني، سألته ليليث، وأضافت، سلمتُ إليك جسدي لتستمتع به دون حدود، دون وزن أو قياس، كي تتلذذ به دون قواعد أو محظورات، فتحتُ لك أبواب روحي، وكانت مقفلة من قبل، وترفض عمل شيء أطلبه منك وسيوفر لنا الحرية الكاملة، ستأتي الحرية، أجل، والندم كذلك، لستُ امرأة تؤمن بالندم، فهذا متروك للصعاليك، للضعفاء، أما أنا فليليث، وأنا لستُ إلا قابيين عادياً جاء من بعيد، شخصاً قتل أخاه، وعاجن طين بقدميه، ودون أن يفعل ما يجعله جديراً بذلك، حالفه الحظ

بالنوم في فراش أجمل امرأة في العالم وأكثرهن تأججاً، وهي من أحبها، ورغبَ فيها واشتهاها بكل مسام في بدنه، ألن نقتل نوا إذاً، سألته ليليث، إن كنتِ مصرة على هذا الأمر، فأرسلي عبداً لقتله، لستُ أحتقر نوا إلى حدّ إرسال عبد ليقتله، إنني عبد، وتريدين مني أن أقتله، الأمر مختلف، فليس عبداً من ينام في فراشي، أو ربما يكون كذلك، ولكنه عبد لي ولجسدي، ولماذا لا تقتلينه أنتِ، سألها قايين، أظن أنني لن أستطيع ذلك على الرغم من كل شيء، رجال يقتلون نساءً هو أمر يحدث كل يوم، أما قتلك له فربما يفتتح عصراً جديداً، فلتفعل ذلك أخريات، أما أنا فإنني ليليث، المجنونة، من تهذي، ولكن خطاياي وجرائمي تتوقف عند ذلك الحد، لنتركه حياً إذاً، وسيكون عقاباً كافياً له أن يعرف أننا نعرف أنه أراد قتلي، احتضنني، ضعني تحت قدميك يا عاجن الطين. احتضنها قايين، ولكنه دخل فيها بنعومة، دون عنف، بعذوبة غير متوقعة أوشكت معها أن تفلت الدموع. بعد أسبوعين من ذلك أعلنت ليليث أنها حبلى.

يمكن لأي كان أن يقول إن السلام الاجتماعي والسلام المنزلي قد خيما على القصر، وأحاطا الجميع بعناقهما الأخوي. لم يكن الأمر كذلك، فقد مضت بضعة أيام توصل خلالها قايين إلى نتيجة أن زمنه قد انقضى الآن بعد أن أصبحت ليليث تنتظر

ابناً. وعندما سيأتي الطفل إلى الدنيا سيكون في نظر الجميع ابن نوا، وإن لم تعدم أشد الشكوك والتقولات المسوغة في البدء، فإن الزمن، وهو مسو عظيم، سيتكفل بالمضي في تسوية هذه وتلك، ناهيك عن مؤرخي المستقبل الذين سيتكفلون بمحو أي تلميح، في تاريخ المدينة، إلى عاجن طين يدعى هابيل أو قابيل، أو أية شياطين أخرى كان اسمه، وهذا الشك في الاسم بحد ذاته سيعتبر سبباً أكثر من كافٍ للحكم عليه بالنسيان، في حجر نهائي عليه، وهكذا سيعتبرونه خارج هذه الأحداث التي من غير المناسب تعريضها للهواء، من أجل طمأنينة السلالات الحاكمة. وقصتنا هذه، على الرغم من أنه ليس فيها شيء تاريخي، فإنها تثبت إلى أي حدّ كان أولئك المؤرخون مخطئين أو سيئي النية، فقد وُجد قايين حقاً، وصنع ابنا لامرأة نوا، ولديه الآن مشكلة عليه أن يحلها، كيف يخبر ليليث برغبته في الرحيل. كان واثقاً من أن الحكم الذي أصدره عليه السيد، «ستمضي هائماً على وجهك وتضيع في العالم»، قادر على إقناعها بتقبل قراره بالرحيل. ولكن الأمر كان في النهاية أسهل مما توقعه، ربما لأن ذلك المخلوق الذي مازال أكثر قليلاً من حفنة خلايا مترنحة في أحشائها، كان يعبر عن رغبة وعن إرادة، باعتباره المفعول الأول الذي اختزل عاطفة الأبوين المجنونة إلى حادثة فراش مبتذلة لن يكرس لها التاريخ الرسمي، كما صرنا نعرف، ولو مجرد سطر

واحد. طلب قايين من ليليث حماراً فأصدرت أوامرها بأن يُقدم إليه أفضل حمار، والأكثر وداعة ومتانة في إسطبلات القصر، وكنا في هذا الشأن عندما انتشر في المدينة خبر أن العبد الخائن والمتواطئين معه قد اكتشف مكانهم وتم اعتقالهم. ولحسن حظ الأشخاص الحساسين، أولئك الذين يشيحون ببصرهم دوماً عن المشاهد المزعجة، أياً تكن طبيعتها، لم يكن ثمة استجواب ولا تعذيب، وهي فوائد ربما يجب أن تُعزى إلى حبل ليليث، فحسب رأي السلطات المحلية الراسخ، يمكن أن يكون نذير شؤم على مستقبل الطفل الآخذ بالتشكل، ليس فقط الدم الذي لا بد من إراقته، وإنما كذلك، وفوق كل شيء، صرخات المعذبين اليائسة. وتقول تلك السلطات، وهي على العموم قابلات ذوات خبرة طويلة، إن الأطفال، في بطون أمهاتهم، يسمعون كل ما يحدث في الجانب الخارجي. فكانت النتيجة عملية إعدام متحفظة بالشنق أمام كافة سكان المدينة، أشبه بإنذار، تنبهوا، فهذا بالضبط ما يمكن أن يحدث لكم. ومن شرفة القصر، حضر الاحتفال التأديبي نوا وليليث وقايين، وقد حضره هذا الأخير باعتباره ضحية الاعتداء الفاشل. وظل مسجلاً أن نوا، خلافاً لما يقره البروتوكول، لم يكن هو من احتل الموقع الأوسط ضمن الجماعة الصغيرة، بل احتلته ليليث، فاصلة بهذه الطريقة بين الزوج والعشيق، كما لو أنها تقول بذلك إنها، وإن كانت لا

تحب الزوج الشرعي، فإنها ستظل مرتبطة به، لأنه ما يرغب فيه، كما يبدو، الرأي العام وتتطلبه مصالح السلالة الحاكمة، ولأنها مضطرة بحكم القدر القاسي، «ستمضي هائماً على وجهك وتائهاً في العالم»، إلى ترك قايين يغادر، لكنها ستظل مرتبطة به من خلال ذاكرة الجسد السامية، من خلال الذكريات غير القابلة للانطفاء عن الساعات المتألقة التي أمضتها معه، وهذا ما لا يمكن لامرأة أن تنساه، فهن لسن كالرجال الذين يتسرب كل شيء من جلودهم. وستظل جثث المجرمين معلقة هناك حيث هي إلى أن لا تبقى منها سوى العظام، لأن لحومهم ملعونة، وإذا ما دُفنوا في الأرض فإنها ستتململ إلى أن تلفظهم مرة ومرات. في تلك الليلة نامت ليليث مع قايين آخر مرة، هي بكت واحتضنها هو وبكى أيضاً، غير أن الدموع لم تدم طويلاً، وسرعان ما سيطرت عليهما العاطفة الغرامية، وبتحكمها بهما، أعادت إطلاق العنان لهما مجدداً حتى الهذيان، حتى المطلق، كما لو أن العالم ليس سوى هذا، عاشقان يلتهم كل منهما الآخر، إلى أن قالت ليليث، اقتلني. أجل، ربما يجب أن تكون هذه هي النهاية المنطقية لقصة غراميات قايين وليليث، ولكنه لم يقتلها، قبّلها طويلاً من شفتيها، ثم نهض، ونظر إليها مرة أخرى وخرج لقضاء ما تبقى من الليل في سريره الضيق كبواب.

6

على الرغم من ظلمة الفجر الرمادية، كانت تُرى الطيور، ليس تلك الكائنات المجنحة اللطيفة التي لن تتأخر طويلاً في إطلاق أغانيها للشمس، بل الطيور الجارحة الفظة، تلك الجوارح التي ترتحل من منصة إعدام إلى أخرى، قد بدأت بعملية التنظيف العامة في أجساد المشنوقين المكشوفة، الوجوه، العيون، الأيدي، الأقدام، نصف السيقان التي لا تصل الجلابيب إلى تغطيتها. طارت بومتان أثارت ذعرهما ضجة حوافر الحمار، محلقتين من فوق كتفي العبد بخفق أجنحة خفيف أشبه بحفيف حرير لا تدركه إلا الأسماع الخبيرة. ودخلتا بطيران مستوٍ في زقاق ضيق، بجانب القصر، واختفتا. همز قابين الحمار بكعبيه، اجتاز الساحة وهو يفكر إن كان سيلتقي الآن أيضاً بالشيخ المسن والنعجتين المربوطتين بحبل، وتساءل أول مرة عمن يكون ذلك الشخص الوقح، ودمدم، ربما يكون السيد، هذا ممكن جداً، برغبته في الظهور فجأة في أي مكان. لم يشأ التفكير في ليليث. فعندما استيقظ في سريره الكئيب كبواب، بعد نوم قلق،

وباضطراب جفلات متواصلة، أوشك دافع مفاجئ إلى دفعه لدخول حجرة ليليث من أجل كلمة وداع أخيرة، من أجل قبلة أخيرة، ومن يدري ما الذي يمكن أن يحدث أكثر. كان الوقت لا يزال متاحاً، فليليث وحدها ستكون مستيقظة، ولن ينتبه أحد إلى دخوله السريع، ربما ستنتبه إلى ذلك فقط الجاريتان اللتان فتحتا له أبواب الفردوس عند مجيئه، ولسوف تقولان ضاحكتين، كم نفهمك جيداً يا هابيل. بعد أن ينعطف عند الناصية التالية سيتوقف عن رؤية القصر. لم يكن هناك عجوز النعجتين، السيد، لو أنه كان موجوداً لقدم إليه بطاقة بيضاء، ولكنه لن يقدم إليه أية خريطة للطرق، ولا جواز سفر، ولا توصية بالفنادق والمطاعم، إنها رحلة مثل الرحلات التي كانت تتم في الزمن القديم، رحلة إلى المغامرة، أو على بركة الرب، كما كان يقال آنذاك. همز قايين الحمار مرة أخرى، وسرعان ما وجد نفسه في حقل مفتوح. كانت المدينة آخذت في التحول إلى بقعة رمادية، وشيئاً فشيئاً، بتأثير تباعد المسافة المتزايد على الرغم من بطء خطوات الجحش، بدت البقعة كما لو أنها آخذة في الغوص في الأرض. كان المشهد المحيط جافاً، قاحلاً، دون أي خيط ماء على مدى النظر. وحيال تلك الوحشة كان من المحال ألا يتذكر قايين المسيرة القاسية التي سارها بعد أن طرده السيد من وادي الشؤم حيث بقي هابيل المسكين إلى الأبد. لقد مشى في تلك المرة

دون أن يكون معه ما يؤكل، ودون قطرة ماء واحدة، باستثناء تلك التي هطلت من السماء، كما في معجزة، عندما كانت قوى روحه تتضاءل تماماً وساقاه تتوعدان بالتهاوي مع كل خطوة. أما في هذه المرة فلن يفتقر إلى الطعام على الأقل، فحافظات الطعام ممتلئة حتى حوافها، ذكرى محبة من ليليث التي لم تكن في نهاية المطاف ربة بيت سيئة مثلما تدفع عاداتها الخليعة إلى الظن. المشكلة أنه لا يظهر في المشهد المحيط كله ظل يمكن أن يلجأ إليه. عند الضحى تحولت السماء إلى لهيب، والهواء إلى دوامة تجعلنا نرتاب بما تراه أعيننا. قال قايين، هذا أفضل، فهكذا لن أضطر إلى الترجل من أجل تناول الطعام. كان الطريق يصعد ويصعد، وكان الحمار الذي ليس فيه، إذا ما أمعنا النظر، شيء من غباء الحمير، يتقدم بصورة متعرجة، حيناً من هنا وحيناً من هناك، مما يدفع إلى التفكير في أنه تعلم هذه الخدعة العبقرية من البغال التي يعرفها الجميع في مسألة صعود الجبال. بضع خطوات أخرى وينتهي الصعود. وعندئذ، آه، يا للمفاجأة، آه، يا للدهشة، آه، يا للذهول، المشهد الذي يمتد الآن أمام قايين مختلف تماماً، أخضر بكل تدرجات الخضرة التي رُئيت ذات يوم، مع أشجار وارفة وزراعات مختلفة، وانعكاسات مائية، ودرجة حرارة خفيفة، وسُحب بيضاء تطفو في السماء. نظر إلى الوراء. نظر إلى الوراء، القحولة السابقة نفسها، الجفاف

نفسه، لا شيء هناك تغير. بدا كما لو أن ثمة حدوداً، خطاً يفصل بين بلدين، أو بين زمنين، قال قايين دون أن يعي أنه قال ذلك، كما لو أن شخصاً آخر فكر في ذلك بدلاً منه. رفع رأسه لينظر إلى السماء ورأى أن الغيوم تتحرك في الاتجاه الذي جئنا منه وتتوقف عند حافة ميلان الأرض لتختفي بفعل فنون سحر مجهولة. لا بد لنا من الأخذ في الاعتبار أن معلومات قايين عن رسم الخرائط كانت سيئة جداً، بل يمكن القول إن تلك كانت، بطريقة ما، هي رحلته الأولى إلى الخارج، ومن الطبيعي بالتالي أن يُفاجأ، فهناك أرض أخرى، وأناس آخرون، وسماوات أخرى، وعادات أخرى. لا بأس، ويمكن لهذا كله أن يكون صحيحاً، ولكن لا أحد يفسر لي سبب عدم انتقال الغيوم إلى الجانب الآخر. اللهم إلا إذا كان الزمن زمناً آخر، يقول الصوت الذي يتكلم بفم قايين، وإن هذا المشهد المُعتنى به والذي لابد أن يكون مشغولاً بيد الإنسان، قد كان في أزمنة ماضية قاحلاً ومجدباً مثلما هي أرض نود. هل نحن في المستقبل إذاً، نتساءل نحن من رأينا بضعة أفلام تتناول هذه المسألة، وقرأنا كذلك بعض الكتب. أجل، هذه هي الطريقة الشائعة لتفسير أمر كهذا الذي يبدو أنه حدث هناك، إنه المستقبل، يقال لنا، فنتنفس بطمأنينة، ونضع له لوحة، بطاقة، ولكننا، برأينا، سنفهم ذلك كله بصورة أفضل إذا ما أطلقنا عليه تسمية حاضر

آخر، لأن الأرض هي نفسها بكل تأكيد، أزمنة حاضرها تأخذ بالتبدل، بعضها حاضر ماض، وغيرها حاضر سيأتي، الأمر بسيط، ويمكن لأي شخص أن يفهمه. أما من يبدي أعمق قدر من السعادة فهو الحمار. فقد ولد وترعرع في أراضي الجفاف واليباس، وتغذى على القش والشوك، وعلى ماء مقنن أو شبه مقنن، والمشهد الذي عرض له يلامس السمو. من المؤسف أنه لا يوجد أحد قادر على ترجمة حركات أذنيه، تلك الحركات التي هي نوع من إشارات مورس الأعلام زودته بها الطبيعة، دون أن يخطر للحيوان المحظوظ أنه سيأتي اليوم الذي يريد فيه التعبير عن وصف ما يعجز الوصف عنه، وما يعجز الوصف عنه، كما نعرف، هو بالتحديد ما يقع أبعد من أي إمكانية على التعبير. وسعيداً كان يمضي قايين أيضاً، فهو يحلم بغداء في الريف، بين نباتات وجداول متهربة وعصافير تعزف سيمفونيات على الأغصان. إلى الجهة اليمنى من الطريق، أبعد قليلاً، يُرى صف من الأشجار الوارفة التي تَعِد بأفضل الظلال والقيلولات. ونحو تلك البقعة وجَّه قايين الحمار. كان المكان يبدو كأنه اختُرع عن قصد من أجل أن يتناول الرحالة المتعبون وجبات طعامهم، وكذلك بهائم حمولتهم. وبالتوازي مع الأشجار، كانت هناك شجيرات تحجب الطريق الضيق المؤدي إلى قمة الرابية. وكان الحمار، بعد تحرره من ثقل حافظات الطعام، مستسلماً للذائذ

العشب الطازج وبقضم زهرة برية وحيدة هناك، وهي طعوم لم تمر من قبل في حلقومه. اختار قايين قائمة طعامه بهدوء، وتناولها هناك بالذات، جالساً على الأرض، تحيط به عصافير بريئة تلتقط الفتات، بينما كانت ذكرى اللحظات الطيبة التي عاشها بين ذراعي ليليث تعاوده لتسخن دمه. وكان جفناه قد بدأا بالتثاقل عندما باغته صوت صبي فتيّ يقول، أبتاه، ثم سمعَ صوتاً آخر، صوت رجل بالغ متقدم في السن، يسأل، ماذا تريد يا إسحاق، نحن نحمل معنا النار والحطب، ولكن أين هي أضحية القربان، السيد يقرر، السيد سيجد أضحية القربان. وواصلا صعود السفح. حسن إذاً، بينما هما يصعدان ولا يصعدان، من المناسب أن نعرف كيف بدأ ذلك، كي نُثبت مرة أخرى أن السيد ليس بالشخص الذي يمكن الثقة به. فقبل ثلاثة أيام، لا أكثر، قال السيد لأبراهام، أبي الفتى الذي يحمل على كاهله حزمة الحطب، خذ ابنك وحيدك إسحاق الذي تحبه أشد الحب، واذهب إلى المُريا، وقدمه لي قرباناً على أحد الجبال الذي أُخبرك به. لقد قرأ القارئ جيداً، فالسيد طلب من أبراهام أن يضحي بابنه، وقد فعل ذلك بمنتهى البساطة، كمن يطلب كأس ماء حين يعطش، مما يعني أن ذلك الطلب كان عادة لديه، وعادة متجذرة جداً. وكان المنطقي، والطبيعي، والإنساني ببساطة أن يتجاهل أبراهام طلب السيد، ولكنه لم

يفعل ذلك. ففي صباح اليوم التالي، نهض الأب المجرد من طبيعته البشرية باكراً ليشدّ السرج على حماره، وهيأ الحطب من أجل موقد القربان، وانطلق في الطريق إلى الموضع الذي أشار إليه السيد آخذاً معه اثنين من غلمانه وابنه إسحاق. وفي اليوم الثالث من الرحلة، أبصر أبراهام الموضع من بعيد. فقال عندئذ للغلامين، امكثا أنتما هنا مع الحمار بينما سأذهب أنا مع الصبي إلى أعلى لنسجد للسيد ثم نرجع بعد ذلك إليكما. هذا يعني أن أبراهام، فضلاً عن أنه لا يقل خبثاً عن السيد، كان كاذباً مصفى، لا يتورع عن خداع أي شخص بلسانه الأفعواني المشطور، وهو ما يعني، حسب المعجم الخاص براوي هذه الحكاية، أنه خائن، غدار، عديم الوفاء، ولطائف أخرى مشابهة. وحين وصل على هذه الحال إلى الموضع الذي كلمه الرب عنه، بنى أبراهام هناك مذبحاً ورتب الحطب فوقه. وبعد ذلك ربط ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم رفع السكين ليذبح الصبي المسكين، وحين همّ بقطع عنقه أحس أن هناك من يثبت ذراعه وسمع في الوقت نفسه صوتاً صارخاً، ماذا ستفعل أيها الشيخ الخبيث، أتريد قتل ابنك، وحرقه، وتكرير القصة نفسها مرة أخرى، البدء بخروف والانتهاء بقتل من يتوجب حبه أكثر من الجميع، فجادل أبراهام، السيد هو الذي أمرني، اصمت وإلا فإنني سأكون أنا من يقتلك، فُكَّ وثاق الصبي،

واسجد لطلب المغفرة منه، من تكون أنت، أنا قايين، إنني الملاك الذي أنقذ حياة إسحاق. لا، لم يكن ذلك صحيحاً، فقايين ليس ملاكاً بأي حال، وإنما الملاك هو ذاك الذي حطّ للتو بصخب أجنحة عظيم وبدأ يلقي الكلام كأنه ممثل أُفسح له المجال للتو، لا تمد يدك إلى الصبي، ولا تُلحق به أي أذى، لأني أرى أنك مطيع للسيد، ومستعد لأن تضحي بابنك الوحيد حباً به، فقال له قايين، لقد وصلتَ متأخراً، وإذا كان إسحاق لا يزال حياً فإنما لأنني من حُلت دون ذلك. فأبدى الملاك ملامح الكآبة، يؤسفني جداً وصولي متأخراً، ولكن ليس الذنب ذنبي، فقد واجهتني وأنا في طريقي إلى هنا مشكلة ميكانيكية في الجناح الأيمن، لم يكن يتحرك بالتزامن مع الأيسر، مما أسفر عن تبدل متواصل في التوجه أدى إلى تشوشي، والحقيقة أنني رأيت هذه الجبال ورغبت فيها من أجل الوصول إلى هنا، لكن الأدهى أنهم لم يوضحوا لي جيداً أي هذه الجبال هو جبل الأضاحي، وإذا كنت قد وصلت فإن ذلك معجزة من السيد، وصلتَ متأخراً، قال له قايين، أن أصل متأخراً خير من ألا أصل، أجابه الملاك بخيلاء، كما لو أنه يعرض حقيقة أولية، إنك مخطئ، فألا تصل ليست عكس متأخر، لأن عكس متأخر هو التأخر كثيراً، أجابه قايين. فدمدم الملاك، أنت عقلاني، ولأنه لم يكن أكمل المهمة الموكولة إليه، فقد أطلق بقية الرسالة، وهنا ما أمرني الرب

بنقله، بما أنك فعلت هذا الأمر ولم تتردد في قتل ابنك، أقسم باسمي الطيب أنني سأُباركك وأمنحك نسلاً كثيراً كنجوم السماء أو كرمل الشاطئ، فيرثُ نسلك مدن أعدائه، وبفضل نسلك أيضاً ستتبارك أمم العالم كلها، من أجل أنك أطعتَ أمري، كلمة السيد. فقال قايين، هكذا هي حسابات السيد المزدوجة، لمن لا يعرفها أو يتظاهر بجهلها، فإذا كان في أحدها مكسب، فإنه لا يخسر في الأخرى، ولست أفهم على كل حال كيف ستكون مباركة جميع أمم العالم لمجرد أن أبراهام انصاع لأمر أحمق، فقال الملاك، هذا ما نسميه نحن في السماء الطاعة الواجبة. وانصرف المخلوق السماوي وهو يعرج بجناحه الأيمن، مع طعم خبيث في فمه لأنه أخفق في مهمته، ومضى أبراهام وابنه كذلك في الطريق إلى المكان الذي ينتظرهما فيه الغلامان، والآن، بينما قايين يرتب وضع حافظات الطعام على متن الحمار، فلنتخيل حواراً بين الجلاد المحبط والضحية الناجية من القتل. سأل إسحاق، أبتاه، أي ضرر سببته لك وجعلك تريد قتلي، وأنا ابنك الوحيد، لم تسبب لي أي ضرر يا إسحاق، لماذا إذاً أردت قطع عنقي كما لو كنتُ حَمَلاً، سأله الصبي، فلو لم يصل هذا الرجل الذي يلفه السيد بالمباركات، ليمسك ذراعك، لكنت تحمل الآن جثة إلى البيت، لقد كانت فكرة السيد الذي يريد دليلاً، دليل على أي شيء، على إيماني، على طاعتي، ومن هو

هذا السيد الذي يأمر أباً بقتل ابنه، إنه سيدنا، سيد أسلافنا، السيد الذي كان هنا عندما ولدنا، فسأل إسحق، لو كان لهذا السيد ابن، هل سيأمر أيضاً بقتله، المستقبل سيقول ذلك، السيد قادر إذاً على كل شيء، على الجيد، وعلى السيئ، وعلى ما هو أسوأ، وهو كذلك، وما الذي كان سيحدث لو أنك عصيت الأمر، من عادة السيد أن يرسل الخراب أو المرض لمن يعصاه، السيد حاقد إذاً، أظن ذلك، أجاب أبراهام بصوت خفيض، كما لو أنه يخشى أن يُسمع، ليس هناك من مستحيل على السيد، فسأله إسحاق، حتى في ارتكاب خطأ أو جريمة، بل في ارتكاب الأخطاء والجرائم بصورة خاصة، لست أفهم هذه الديانة يا أبتاه، حاول تفهمها يا بني لأنه ليس لك من سبيل آخر، والآن أريد أن أطلب منك طلباً، طلباً واحداً بائساً، ما هو، أن ننسى ما حدث، لا أدري إن كنتُ قادراً على ذلك يا أبتاه، فمازلتُ أرى نفسي مقيداً فوق الحطب، وذراعك مرفوع بالسكين اللامعة، من كان هناك لستُ أنا، فحين أكون في كامل وعيي لا يمكنني فعل ذلك أبداً، أتريد القول إن السيد يسبب الجنون للناس، سأله إسحاق، أجل، في أحيان كثيرة، على الدوام تقريباً، من كان يحمل السكين في يده على أي حال هو أنت، السيد هو من رتب ذلك كله، كي يتدخل في اللحظة الأخيرة، وقد رأيتَ الملاك الذي حضر، ووصل متأخراً، لكن السيد وجد طريقة

أخرى لإنقاذك، ربما لأنه كان يعرف أن الملاك سيتأخر فجعل ذلك الرجل يظهر، اسمه قايين، ويجب ألا تنسى ما أنت مدين له به، قايين، كرر أبراهام منصاعاً، لقد عرفتهُ قبل أن تولد أنت، إنه الرجل الذي أنقذ ابنك من الذبح والحرق على حزمة الحطب التي كان يحملها هو نفسه على كاهله، هذا كله لم يحدث لك يا بني، المسألة يا أبي ليست في موتي أو عدم موتي، على الرغم من أن هذا الأمر يهمني كثيراً، المسألة في أننا محكومون من سيد مثل هذا، شديد القسوة مثل بعل الذي التهم أبناءه، أين سمعتَ هذا الاسم، الناس يحلمون يا أبتاه. إنني أحلم، هذا ما قاله قايين أيضاً عندما فتح عينيه. كان قد نام وهو يمتطي الحمار ثم استيقظ فجأة. وجد نفسه وسط مشهد مختلف، فيه بعض الأشجار العجفاء المتفرقة هنا وهناك، والجاف جداً مثل أرض نود، وإن يكن جافاً بالرمل وليس بالشوك. فقال، إنه حاضر آخر. بدا له أنه حاضر أقدم من السابق الذي أنقذ فيه حياة الغلام المدعو إسحاق، مما يثبت أنه قادر على التقدم وعلى التقهقر في الزمن، ولكن ليس بإرادته الخاصة، لأنه يشعر، إذا ما تكلمنا بصراحة، كمن هو يعرف إلى هذا الحد أو ذاك، فقط إلى هذا الحد أو ذاك، أين هو موجود، ولكنه لا يعرف إلى أين يتوجه. فلهذا المكان، ولمجرد تقديم مثال صغير على الصعوبات التي يصادفها قايين في التوجه، كل مظاهر كونه حاضراً حدث

منذ زمن طويل، كما لو أن العالم لا يزال في آخر مراحـل نشوئه ولكـل شـيء فيـه هيئـة المؤقـت. وفي البعيـد، عنـد حافـة الأفـق بالذات، ينتصب برج شاهق الارتفاع على شكل مخروط مقطـوع، هذا يعني شكلاً مخروطياً بُتر جزؤه العلوي أو أنه لم يشـيد بعـد. كانت المسافة بعيدة جداً، غير أنه بدا لقايين الـذي يتمتـع بقـوة بصر ممتازة أن هناك أناساً يتحركون حول البناء. دفعـه الفضـول إلى همز البهيمة لتغذ الخطى، إلا أن الحذر اضطره بعـد ذلـك إلى تخفيف السرعة. لم يكن موقناً من أنهم أناس مسالمون، وحتى لو كانوا كذلك، فمن يدري ما الذي يمكن أن يحدث لحمـار محمـل بحافظات مملوءة بأطعمة من أفضل الأنواع حيال حشد من الناس لن يتورعوا، بسبب الحاجة أو التقاليد، عن التهام كل ما يظهـر أمامهم. لم يكن يعرفهم، ولا يعلم مـن هـم، غـير أنـه لـيس مـن الصعب التنبؤ بالنهاية. ولم يكن بمقدوره كذلك أن يترك الحمـار هناك، مربوطاً إلى إحدى تلك الأشجار كشـيء بـلا أهميـة، لأنـه يجازف بعدم العثـور، عنـد رجوعـه، لا علـى البهيمـة ولا علـى الطعام. الحذر يتطلب منه اتخـاذ طريـق آخـر، وأن يتخلـى عـن المغامرة، أو في نهاية المطاف، لقول ذلـك بكلمـات أخـرى، عـدم تحدي القدر. إلا أن الفضول كان أقوى من الحذر. فأخفى بأفضل ما يستطيع الجزء العلوي من حافظات الطعام بأغصـان أشـجار، كما لو أن ما يحمله طعام للبهيمة التي استعادت قواهـا بمباهـاة،

وانطلق مباشرة باتجاه البرج. وكلما اقترب أكثر، كانت ضجة الأصوات، الخافتة في البدء، تتعاظم وتتعاظم إلى أن تحوّلت إلى لغط صاخب. يبدون كالمجانين، بل كمجانين بحاجة إلى تقييد، فكر قايين. أجل، كانوا مجانين من اليأس لأنهم يتكلمون ولا يتوصلون إلى التفاهم فيما بينهم، كما لو أنهم صمّ، ويصرخون كل مرة بأصوات أعلى، دون جدوى. كانوا يتكلمون بلغات مختلفة، وفي بعض الأحيان يضحكون ويسخر بعضهم من البعض كما لو أن لغة كل واحد منهم أكثر تناسقاً وجمالاً من لغة الآخرين. وما يثير الفضول في الحالة، وهو ما لم يعرفه قايين بعد، أن أياً من تلك اللغات لم يكن له من وجود في العالم من قبل، وجميع من هم هناك كانت لهم لغة أصلية واحدة فقط، وكانوا يتفاهمون بها دون أدنى صعوبة. وقد حالفه الحظ باللقاء برجل يتكلم العبرية، وهي اللغة التي كانت من نصيبه، وسط الفوضى السائدة التي لاحظها قايين، حيث أناس يلهجون، دون معاجم أو تراجمة، بالإنكليزية، بالألمانية، بالفرنسية، بالإسبانية، بالإيطالية، بالباسكية، والبعض باللاتينية واليونانية، بل كان هناك، ومن يمكنه تصور ذلك، من يتكلم بالبرتغالية. أي رطانة هذه، سأل قايين، فأجابه الرجل، عندما جئنا من الشرق لنستقر هنا، كنا جميعنا نتكلم اللغة نفسها، وما اسم تلك اللغة، أراد قايين أن يعرف، بما أنها كانت اللغة

الوحيدة الموجودة، لم تكن ثمة حاجة لتسميتها، فقد كانت اللغة وحسب، وما الذي حدث بعد ذلك، خطر لأحدهم أن يصنع اللِّبن وأن يشويه في الفرن، كيف كان يصنعه، سأل عاجن الطين القديم وقد أحس أنه بين معشره، مثلما كان يُصنع على الدوام، بخليط من الطين والرمل والقطران، وبعد ذلك، بعد ذلك قرروا بناء مدينة مع برج عظيم، هذا البرج الذي تراه هناك، برج يصل حتى السماء، لماذا أردتم ذلك، سأله قايين، كي نصبح مشهورين، وما الذي حدث، لماذا العمل في البناء متوقف، لأن السيد جاء للتفتيش ولم يرق له ما نفعل، بلوغ السماء هي رغبة كل إنسان عادل، ولا بد أن يكون السيد نفسه قد شارك في البناء، من الجيد أن يكون الأمر كذلك، ولكنه لم يجرِ على هذا النحو، ما الذي فعله إذاً، قال إننا بعد أن بدأنا ببناء البرج لن يمتنع علينا عمل ما نشاء، ولهذا بَلبل ألسنتنا، ومنذ هذه اللحظة، كما ترى، لم يعد أحد منا يفهم الآخر، فسأله قايين، وماذا سيحدث الآن، لن يكون الآن ثمة مدينة، والبرج لن ينتهي، ونحن، وقد صار لكل واحد منا لغته، لن نستطيع العيش معاً مثلما كنا حتى اليوم، من الأفضل ترك البرج كتذكار، وستأتي أزمنة تكون فيها رحلات من كافة الأنحاء لمشاهدة الأطلال، ربما لن تبقى حتى الأطلال، فهناك من سمع السيد يقول إننا عندما نغادر من هنا سيرسل ريحاً

عظيمة لتقويضها، وما يقوله السيد يفعله، مشاعر الغيرة نقيصة عظيمة، فبدلاً من أن يكون فخوراً بأبنائه، يفضل السماح للحسد أن يتغلب عليه، من الواضح أن السيد لا يطيق رؤية شخص سعيد، كل هذا العمل، وكل هذا العرق، في سبيل لا شيء، فقال قايين، أمر مؤسف، لأنه سيكون بناء جميلاً، أجل، قال الرجل، وقد بدا النهم في عينيه الآن وهو ينظر إلى الحمار. وكان يمكن للأمر أن يكون سهلاً عليه لو أنه طلب مساعدة زملائه، غير أن الأنانية كانت أقوى من الذكاء. وحين قام بحركة ليمد يده إلى الجحش، قام الحمار، وهو البهيمة نفسها التي خرجت من إسطبلات نوا بسمعة أنها وادعة، قام بحركة أشبة بخطوة راقصة بقائمتيه الأماميتين والتف بقائمتيه الخلفيتين موجهاً بهما لبطتين طرحتا ذلك الشيطان التعيس في الوحل. وعلى الرغم من أنه تَصَرَّفَ في دفاع شرعي عن النفس، إلا أن الحمار أدرك على الفور أن مسوغاته الطيبة لن تكون مقبولة لدى الحشد الذي يجأر بكل اللغات الموجودة والتي ستوجد، والذي لا يتقدم ليسطو على حافظات الطعام ويحوّله هو نفسه إلى كفتة. دون أن يحتاج إلى أن يحثه همز بكعبي فارس، انطلق في خبب حيوي ثم في عدو سريع غير متوقع على الإطلاق، بالنظر إلى طبيعته الحمارية، من حيوان آمن، ولكن من غير الممكن، من حيث المبدأ، مطالبته بالعدو السريع. فما كان من المهاجمين إلا الاستسلام لرؤيته

يختفي وسط سحابة من الغبار، مما سيؤدي إلى نتيجة أخرى مهمة، تتمثل في انتقال قايين وركوبته إلى حاضر مستقبلي آخر في ذلك المكان نفسه، ولكنه خال من منافسي السيد العنيدين الذين تفرقوا في العالم بعد أن لم تعد لهم لغة مشتركة أخرى تبقيهم متحدين. فقد كان البرج ينتصب هناك متسلطاً ومهيباً، يبدو قادراً على تحدي العصور والألفيات، عندما حدث فجأة أنه كان ولم يعد كائناً. وقد تحقق بذلك ما أعلنه السيد من أنه سيرسل ريحاً عظيمة لا تترك حجراً على حجر ولا لبنة فوق لبنة. لم يُتح بُعد المسافة لقايين رؤية عنف الإعصار الذي ينفخ به فم السيد، ولا دوي الجدران المتهاوية واحداً بعد آخر، والأعمدة والأقواس والقناطر والزخارف، ولهذا بدا كما لو أن البرج ينهار بصمت، مثل قلعة من ورق اللعب، إلى أن انتهى كل شيء في سحابة غبار تصعد نحو السماء وتحجب رؤية الشمس. ولسوف يقال بعد سنوات طويلة إن نيزكاً قد سقط هناك، جرم سماوي مثل أجرام كثيرة تأتي من الفضاء، ولكنها ليست الحقيقة، فقد كان برج بابل الذي لم يسمح غرور السيد بإنهائه. إن تاريخ البشر هو تاريخ خلافاتهم مع الإله، فلا هو يفهمنا ولا نحن نفهمه.

7

وكان مكتوباً في ألـواح القـدر أن علـى قـايين أن يلتقـي ثانيـة بأبراهام. فذات يوم، وبفعل أحد تحولات الحاضر المفاجئـة تلـك التي تجعله يسافر في الـزمن، مـرة إلى الأمـام ومـرة إلى الخلـف، وجد قايين نفسه أمام خيمة، في ساعة اشتداد القيظ، إلى جانـب بعض أشجار البلوط في ممرا. بدا له أنه يلمح شـيخاً مسـناً ذكّـره بصورة غامضة بأحدهم. ومـن أجـل التأكـد مـن ذلـك طـرق بـاب الخيمة، وعندئذ ظهر أبراهام. وسأله، **هـل** تبحـث عـن أحـد، **نـ**عم ولا، فأنا عابر سبيل فقط، وقد بدا لي أني أعرفك ولم أكـن مخطئاً، كيف حال ابنك إسحاق، فأنا قـايين، **لـ**قـد أخطـأت، فابني الوحيد يدعى إسماعيل وليس إسحاق، وإسماعيل هو الابن الذي أنجبته من جاريتي هاجر. وعندئذ أَشرقت فجأة روح قايين المدربة على مثل تلك الأوضاع، فلعبة الحاضر المتبدل قد تلاعبت بالزمن مرة أخرى، وأظهرت له من قبل ما سيحدث في ما بعـد، أو بعبارة أخرى، لقول ذلك بأبسط ما لدينا من الكلام وأوضحـه، فإن إسحاق المذكور لم يكن قد ولـد بعـد. **لا** أتـذكر أنـني رأيتُـكَ

قط، قال أبراهام، ولكن أدخل، إنك في بيتك، سآمر أن يؤتى إليك بماء لتغسل قدميك وبخبز لرحلتك، عليّ أولاً أن أهتم بحماري، خذه إلى حيث أشجار البلوط تلك، فهناك يوجد حشيش وتبن ومنهل مملوء بماء بارد. اقتاد قايين الجحش من عنانه، ونزع عنه البردعة كي يتخفف من الحر وأوقفه في الظل. ثم راز حافظات الطعام شبه مفكر في كيف سيتمكن من معالجة نقص الأطعمة الذي بدأ يقلقه. وكان ما سمعه من أبراهام قد منحه روحاً جديدة، غير أنه لا بد من الأخذ في الحسبان أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولاسيما هو نفسه المعتاد في الأزمنة الأخيرة على التدلل بأطعمة أسمى بكثير من منشئه وشرطه الاجتماعي. ترك قايين الحمار مستغرقاً في أشد متع البراري سذاجة: ماء وظل وطعام وفير، وتوجه إلى الخيمة، فطرق الباب ليُخبر بحضوره ودخل. وعلى الفور رأى أن اجتماعاً ينعقد هناك لم يُدع إليه كما هو واضح، فقد وجد ثلاثة رجال، يبدو أنهم حضروا أثناء اهتمامه بالحمار، يتبادلون الحديث مع صاحب البيت. قام بحركة تشير إلى أنه ينوي الانسحاب بالتكتم المطلوب، غير أن أبراهام قال له، لا تذهب، أجلس، فجميعكم ضيوفي، وإذا سمحتم لي الآن فسوف أبدأ بإصدار أوامري. وتوجه في الحال إلى داخل الخيمة وقال لامرأته سارة، أسرعي، اعجني ثلاث كيلات من أفضل الدقيق واصنعي خبزاً. ثم اقترب من

المكان الذي توجد فيه المواشي فأخذ عجلاً فتياً وسميناً وأعطاه للخادم كي يطهوه دون تأخير. وبانتهاء ذلك كله، قدم لضيوفه العجل الذي أعدّه، بمن فيهم قايين، ستأكل معهم هناك، تحت الشجرة، قال. وكما لو أن هذا قليل، فقد قدم إليهم أيضاً زبداً ولبناً. عندئذ سألوه، أين هي سارة، فأجاب أبراهام، إنها في الخيمة. وعندئذ قال أحد الرجال الثلاثة، سوف أرجع إلى بيتك في السنة المقبلة، وسيكون لامرأتك آنذاك في موعدها ابنٌ، هذا الابن سيكون إسحاق، قال قايين بصوت خافت، بل خافت جداً لم يبدُ على أحد أنه سمعه. حسن، وكان أبراهام وسارة متقدمين جداً في السن، ولم تكن المرأة في ظروف تسمح لها بالإنجاب. ولهذا ابتسمت حين فكرت، كيف لي أن أجد هذه السعادة بعد أن صرتُ وزوجي عجوزين متعبين. فسأل الرجلُ أبراهام، لماذا ابتسمت سارة مفكرة في أنها لن تستطيع إنجاب ابن وهي في هذه السن، أيكون هذا الأمر صعباً على السيد. وكرر ما كان قد قاله من قبل، سوف أرجع إلى بيتك بعد حول من الآن، وفي موعدها ستكون امرأتك قد أنجبت ابناً. حين سمعت سارة ذلك خافت وأنكرت أنها ابتسمت، ولكن الآخر ردّ عليها، بل ابتسمتِ أيتها السيدة، وأنا رأيتُ ذلك. في تلك اللحظة أدرك الجميع أن الرجل الثالث هو السيد الإله شخصياً. وقد فاتنا أن نذكر في الوقت المناسب أن قايين، قبل أن يدخل إلى

الخيمة، أنزل شريط عمامته حتى عينيه ليخفي علامة جبهته عن فضول الحاضرين، ولاسيما السيد الذي تعرف إليه فوراً، ولهذا حين سأله السيد إن كان اسمه قايين، ردّ عليه، الحقيقة أنني قايين، ولكن ليس ذاك.

وكان الطبيعي، حيال ذلك الإنكار البارع، أن يلح السيد على أنه لا يمكن لأي قايين أن ينتهي إلى الاعتراف بأنه هو نفسه ذاك الذي قتل أخاه هابيل وأنه بسبب ذلك الذنب يمضي هائماً على وجهه في تنفيذ الحكم عليه بالضياع والتيه، غير أنه كان لدى السيد قلق أكثر أهمية واستعجالاً من الانهماك في التحري عن حقيقة هوية غريب مشبوه. فقد كانت تصل إليه في الأعالي، في السماء التي نزل منها قبل لحظات، شكاوى عديدة عن جرائم ممارسات مخالفة للطبيعة تُقترف في مدينتي سدوم وعموره القريبتين. وباعتباره الحكم غير المتحيز الذي يتظاهر بأنه عليه على الدوام، وإن كنا لا نعدم أعمالاً له تثبت العكس بالضبط، فقد قرر المجيء إلى هنا في الأسفل ليستوضح المسألة تماماً. ولهذا توجه إلى سدوم يرافقه أبراهام، وكذلك قايين الذي طلب، بفضول السائح، السماح له بالذهاب معهما. أما الشخصان الآخران اللذان جاءا معه، ومن المؤكد أنهما ملاكان مرافقان، فكانا قد غادرا قبلهم. عندئذ وجه أبراهام ثلاثة أسئلة إلى السيد، هل ستُهلكُ البررة مع الخاطئين، فلنفترض أنه يوجد خمسون

باراً في سدوم، فهل ستُهلكهم كذلك، أفلا تصفح عن المدينة كلها من أجل الخمسين بريئاً من الإثم. ثم واصل القول، حاشا أن تفعل شيئاً كهذا أيها السيد، أن تحكم بالموت على البريء مع المذنب، فبهذه الطريقة، وأمام أعين الناس، سيبدو سيان أن يكون المرء بريئاً أو مذنباً، وبما أنك قاضي العالم قاطبة عليك أن تكون عادلاً في أحكامك. وعلى هذا الكلام ردّ السيد، إن وجدتُ في مدينة سدوم خمسين بريئاً فسوف أصفح عن المدينة من أجلهم. فتحمس أبراهام وقد ملأه الأمل، وواصل قائلاً، بما أنني أخذت حريتي في التكلم إلى سيدي مع أنني لستُ سوى تراب أرض بائس، فإنني أسمح لنفسي بكلمة أخرى، فلنفترض أنهم لا يصلون إلى الخمسين بريئاً، وأنهم نقصوا خمسة، فهل ستُهلك المدينة كلها بهؤلاء الخمسة. فردّ السيد، إن وجدتُ هناك خمسة وأربعين بريئاً فلن أُهلك المدينة. فقرر أبراهام الإلحاح، ولاسيما أنه رأى أن القطار قد انطلق، فلنفترض أن هناك أربعين بريئاً، وأجابه السيد، لن أُهلك المدينة أيضاً من أجل هؤلاء الأربعين، وماذا لو وُجد ثلاثون، لن أُلحق الأذى بالمدينة من أجل الثلاثين، وإذا كانوا عشرين بريئاً، ألح أبراهام، لن أُهلكها من أجل العشرين. عندئذ تجرأ أبراهام على القول، عسى سيدي لا يغضب لو سألته مرة واحدة أخرى فقط، فقال له السيد، تكلم، فلنفترض أنه يوجد عشرة أبرياء فقط،

فردّ عليه السيد، لن أُهلك المدينة من أجل هؤلاء العشرة. وذهب السيد بعد أن ردّ على هذا النحو على أسئلة أبراهام، ورجع أبراهام بصحبة قايين إلى الخيمة. أما عن ذاك الذي لم يولد بعد، عن إسحاق، فلن نتكلم أكثر. عندما وصلا إلى بلوطات ممرا، دخل أبراهام إلى الخيمة، وخرج منها بعد قليل حاملاً أرغفة الخبز التي قدمها إلى قايين، مثلما كان قد وعده. وقد كان قايين في تلك الأثناء يسرج حماره، فتوقف كي يشكره على هبته السخية وسأله، كيف تظن أن السيد سيحصي العشرة أبرياء الذين إن وجدوا سيجنبون سدوم الدمار، أتظن أنه سيذهب من باب لباب متقصياً عن ميول أرباب العائلات وذريتهم من الذكور وشهواتهم الجنسية، فأجاب أبراهام، ليس الرب بحاجة إلى إجراء استقصاءات من هذا النوع، فما عليه إلا أن ينظر إلى المدينة من أعلى ليعرف ما الذي يحدث فيها، فسأله قايين من جديد، أتعني أن السيد عقد هذا الاتفاق معكَ من أجل لا شيء، لمجرد إرضائك وحسب، لقد أعطى السيد كلمته، لم يبدُ لي أنه فعل ذلك، فأنا موقن كيقيني من أن اسمي قايين، بالرغم من أنني سُميت كذلك في الحقيقة هابيل، وسواء وُجد في المدينة أبرياء أم لم يوجدوا، فإن سدوم ستُدمر، ومن المحتمل أن يحدث ذلك هذه الليلة بالذات، هذا ممكن، أجل، ولن تكون سدوم وحدها، وإنما عمورة كذلك، ومعهما مدينتان أو ثلاث مدن أخرى في

السهل حيث شهدت العادات الجنسية تراخياً مماثلاً، فالرجال مع رجال والنساء مستبعدات، أفلا يقلقك ما يمكن أن يحدث للرجلين اللذين جاءا مع السيد، لم يكونا رجلين، وإنما هما ملاكان بلا أجنحة، وأنا أعرفهما جيداً، ملاكان بلا أجنحة، لا يحتاجان إلى أجنحة إن أرادا الهرب، أقول لك بصراحة أن رجال سدوم لن يهتموا قدر فجلة بكونهما ملاكين إذا ما انقضوا عليهما بأيديهم وبأشياء أخرى، ولن يكون السيد سعيداً منك بأي حال، ولو أنني كنتُ مكانك لذهبتُ إلى المدينة لأرى ما الذي سيحدث، فهم لن يُلحقوا بك هناك أي أذى، معك حق، سوف أذهب، ولكنني أطلب منك أن ترافقني، سوف أشعر معك بمزيد من الأمان، فرجل ونصف رجل أفضل من رجل وحيد، إننا اثنان، أنا لستُ سوى نصف رجل يا قايين، بما أن الأمر كذلك فلنذهب، وإن هاجمنا رجلان أو ثلاثة فإنني قادر على صدهم بالخنجر الذي أخبئه تحت جلبابي، أما إذا كانوا أكثر فيصيبنا ما يقدره السيد. وعلى الفور استدعى أبراهام خادماً وأمره بأن يقود الحمار إلى الحظيرة، وقال لقايين، إن لم تكن لديك التزامات تضطرك إلى الرحيل اليوم، فإنني أقدم إليك ضيافتي هذه الليلة مع أجر ضئيل مقابل معروفك بمرافقتي، آمل أن أتمكن في المستقبل من تقديم أعمال معروف أخرى لكم لو كان الأمر بيدي، أجابه قايين، ولكن لم يكن بمقدور أبراهام أن

يتصور إلى أين يريد الوصول بتلك الكلمات الغامضة. بدأا النزول نحو المدينة وقال أبراهام، فلنبدأ بالذهاب إلى بيت لوط ابن أخي هارون وهو سيطلعنا على ما يحدث. كانت الشمس قد غابت عندما وصلا إلى سدوم، إلا أنه كان هناك ما يكفي من ضوء النهار. وقد رأيا حينئذ جماعة كبيرة من الرجال قبالة بيت لوط، وكانوا يصرخون، نريد هذين اللذين في بيتك، أخرجهما إلينا لأننا نريد النوم معهما، وكانوا يطرقون الباب بقوة مهددين بتحطيمه. فقال أبراهام لقايين، تعال معي، سنلتف حول البيت ونطرق على الباب الخلفي. وهذا ما فعلاه. ودخلا إلى البيت في الوقت الذي كان فيه لوط يقول، من الجانب الآخر للبوابة الرئيسية، أرجوكم يا أصدقائي، لا تقترفوا مثل هذه الجريمة، لدي ابنتان عازبتان، يمكنكم أن تفعلوا بهما ما ترغبون، وأما هذان الرجلان فلا تلحقوا بهما أي أذى لأنهما طلبا الحماية في بيتي. فواصل من هم في الخارج إطلاق صرخات غاضبة، ولكن الصراخ تحول فجأة وما صار يُسمع الآن هو أنين وبكاء، إنني أعمى، إنني أعمى، هذا ما كانوا يقولونه جميعاً، ويتساءلون، أين هو الباب، كان الباب هنا ولم يعد موجوداً. فمن أجل إنقاذ ملاكيه من الاغتصاب بوحشية، وهو مصير أسوأ من الموت حسب رأي العارفين، أصاب السيد بالعمى رجال سدوم جميعهم دون استثناء، مما يثبت أنه لم يكن هناك، في نهاية

المطاف، ولو عشرة من الأبرياء. وفي داخل البيت، كان الزائران يقولان للوط، غادر المكان مع كل ذويك من أبناء وبنات وأصهار، وكل ما لكم في هذه المدينة، لأننا جئنا لتدميرها. خرج لوط وذهب ليحذر من سيكونان صهريه المقبلين، ولكنهما لم يصدقاه وضحكا مما اعتبراه مزاحاً. وكان الفجر آخذاً بالتقدم عندما عاد مبعوثا السيد للإلحاح على لوط، انهض وأَخرج من هنا مع امرأتك وابنتيك اللتين مازالتا معك إذا كنت لا تريد التعرض أيضاً للعقاب الذي سيقع على المدينة، فهذه ليست مشيئة السيد، ولكنه ما سيحدث دون مفر ما لم تنصع لقولنا. ودون انتظار الجواب، أمسكا بيده ويد امرأته ويد ابنتيه وحملاهم خارج المدينة. وذهب أبراهام وقايين أيضاً معهم، ولكنهما لم يرافقاهم إلى الجبال مثلما كان سيفعل الآخرون لو أنهم عملوا بنصيحة المبعوثين، لأن لوط طلب أن يتركاهم في مدينة، هي أقرب إلى القرية، تدعى صوغر. فقال المبعوثان، اذهبوا إلى هناك، ولكن لا تنظروا إلى الوراء. دخل لوط إلى القرية حين كانت الشمس تشرق، وعندئذ أمطر السيد كبريتاً وناراً على سدوم وعمورة، ودمر كلتا المدينتين وقلبهما رأساً على عقب، ومثلهما المنطقة كلها، بكل ما فيها من سكان ونبات. فلو نظر المرء أينما نظر، لن يرى سوى الأنقاض والرماد والأجساد المتفحمة. أما امرأة لوط فنظرت إلى الوراء مخالفة الأمر الصادر

فتحولت إلى تمثال من ملح. وحتى اليوم لم يتمكن أحد فهم سبب معاقبتها على ذلك النحو، في حين أنه من الطبيعي جداً أن نرغب في معرفة ما الذي يحدث من وراء ظهورنا. من المحتمل أن السيد أراد معاقبة الفضول كما لو كان خطيئة قاتلة، ولكن هذا لا يشكل أيضاً ضمانة لذكائه، وانظر ما حدث مع شجرة الخير والشر، فلو أن حواء لم تقدم الثمرة كي يأكلها آدم، ولو لم تأكلها هي أيضاً، لكانا لا يزالان في جنة عدن، على الرغم مما في ذلك من ضجر. وفي طريق العودة، توقفا مصادفة للحظات في الطريق، حيث تحادث أبراهام مع السيد، وهناك قال قايين، هناك فكرة لا تفارقني، فسأله أبراهام، أية فكرة، أفكر في أنه كان هناك أبرياء في سدوم وفي المدن الأخرى التي أُحرقت، إذا كانوا موجودين حقاً فلا بد أن الرب قد أنجز الوعد الذي قطعه لي بإنقاذ حياتهم، الأطفال، الأطفال كانوا أبرياء، فدمدم أبراهام، رباه، وكان صوته أشبه بأنين، أجل، لقد كان ربك، ولكنه ليس ربهم.

8

وفي لحظة واحدة، رجع قايين ذاك الذي كان في سدوم إلى الدروب ووجد نفسه في صحراء سيناء، حيث رأى نفسه، بمفاجأة عظيمة، وسط حشد كبير من أناس يخيمون على سفح جبل. لم يكن يعرف من هم، ولا من أين يأتون، ولا إلى أين يذهبون. ولو أنه سأل شخصاً ممن هم هناك قريبون، فسوف ينكشف أمره كغريب على الفور، ويمكن لهذا وحده أن يجذب إليه تعقيدات ومشاكل. ولأنه يمضي، كما يبدو، بقدم حذرة إلى الوراء، فقد قرر أنه لن يسمي نفسه هذه المرة لا قايين ولا هابيل، كيلا يحدث ويحشو الشيطان الأسلحة ويصل إلى هنا أحد سمع حديثاً عن الأخوين ويبدأ بالأسئلة المحرجة. من الأفضل له إبقاء عينيه وأذنيه مفتوحة واستخلاص النتائج بنفسه. هناك أمر وحيد كان واثقاً منه، اسم شخص يدعى موسى كان يدور على فم الجميع، البعض بتوقير قديم، والأكثرية بجزع وفراغ صبر حديث. وكان هؤلاء هم الذين يسألون، أين هو موسى، فمنذ أربعين يوماً وأربعين ليلة ذهب إلى الجبل ليكلم السيد وحتى

الآن لا يوجد منه خبر ولا علم، من الواضح أن السيد قد تخلى عنا، ولم يعد يريد أن يعرف شيئاً عن شعبه. طريق الخطأ يبدأ ضيقاً، ولكنه يجد على الدوام من هو مستعد لتوسيعه، ويمكن القول إن الخطأ ـ بتكرار القول الشعبي الشائع ـ مثله مثل الأكل والحك، المسألة تتلخص في البدء به. وبين الناس الذين ينتظرون عودة موسى من جبل سيناء كان هناك أخٌ له يدعى هارون، وكانوا قد نصبّوه كاهناً أعلى، منذ أزمنة استعباد بني إسرائيل في مصر. وإليه توجه الجزعون، قم اصنع لنا إلهاً يرشدنا، لأننا لا نعلم ماذا أصاب موسى. ولم يكن هارون كما يبدو مثالاً في صلابة الطبع، فضلاً عن أنه رعديد جداً، وبدلاً من أن يرفض قولهم بحزم، قال لهم، إن كان هذا ما ترغبون فيه، فانزعوا أقراط الذهب من آذان نسائكم وأبنائكم وبناتكم واتوني بها. ففعلوا ذلك. ثم ألقى هارون الذهب في قالب وصهره وصنع منه عجلاً ذهبياً. وبدا أنه سعيد بصنيعه، دون أن ينتبه إلى التعارض الذي يوشك أن يولده حول وجهة العبادات التالية، أهي السيد المذكور نفسه أم عجل يتظاهر بأنه الإله. ثم أعلن هارون قائلاً، يوم غد سيكون عيد على شرف السيد. سمع ذلك كله قايين الذي راح يجمع كلمات متفرقة، ومقاطع من حوارات، وخطوطاً عريضة من الآراء، وبدأت تتكون لديه فكرة ليس حول ما كان يجري في تلك اللحظة وحسب، وإنما حيثياته السابقة أيضاً. وقد

ساعدته كثيراً الأحاديث التي سمعها في خيمة جماعية ينام فيها العازبون، ممن ليس لهم أسرة. قال قايين إن اسمه نوا، ولم يخطر له اسم أفضل، وقد تم تقبله على أحسن وجه، وانضم بصورة طبيعية إلى الاجتماعات. وكان اليهود منذ ذلك الزمن يتكلمون كثيراً، وأحياناً أكثر من كثير. وفي صباح اليوم التالي انتشر الخبر بأن موسى يأتي نازلاً من جبل سيناء أخيراً وأن يَشُوع، مساعده وقائد بني إسرائيل العسكري، قد خرج لاستقباله. وعندما سمع يشوع صرخات الشعب في هتافه، قال لموسى، تُسمع صرخات حرب في المعسكر، فقال موسى ليشوع، ما يُسمع ليس أهازيج سعادة بالنصر، ولا ندب حزن من الهزيمة، إنها هي أصوات غناء أناس وحسب. لم يكن يعرف ما الذي ينتظره. وحين دخل إلى المعسكر وجد في مواجهته العجل الذهبي والناس يرقصون حوله. عندئذ انقض على العجل فهشمه وحوله إلى غبار ثم التفت إلى هارون وسأله، ماذا فعل بك هذا الشعب لتتركه يقترف مثل هذه الخطيئة العظيمة. وعلى الرغم من كل عيوب هارون، إلا أنه كان يعرف العالم الذي يعيش فيه، فرد قائلاً، آه يا سيدي، لا تغضب مني، أنت تعرف أن هذا الشعب يميل نحو الشر، وقد كانت الفكرة فكرتهم، أرادوا إلهاً آخر لأنهم ظنوا أنك لن ترجع، وكانوا سيقتلونني دون ريب لو أنني رفضت تنفيذ مشيئتهم. حين سمع موسى ذلك، وقف

عند مدخل المعسكر وصرخ، مـن هـو مـع السـيد فلينضـم إلـيّ. فانضم إليه جميع بـني لاوي، فهتـف موسـى، إلـيكم مـا يقولـه السيد إله إسرائيل، فليأخذ كل واحـد مـنكم سيفه، ويرجـع إلى المعسكر ويمضي من باب إلى باب فيقتـل الأخ والصـديق والجـار. فكان أن قُتل على ذلك النحو قرابة ثلاثة آلاف رجل. وكان الدم يسيل بين الخيام مثل سيل ينبثق من تحت الأرض نفسها، كمـا لـو أنهـا هـي بالـذات مـن تنـزف، وكانـت الأجسـاد المذبوحـة والبطـون المبقـورة والمشـقوقة مـن المنتصـف ملقـاة في كـل مكـان، وكانت صرخات النساء والأطفال مدوية إلى حدّ تصل معه إلى قمة جبل سيناء، حيث يجب أن يكون السـيد مسـتمتعاً بانتقامـه. لم يستطع قايين أن يصدق ما يراه بأم عينـه. لم يكـن كافيـاً تـدمير سدوم وعمورة بالنار، فهنا، على سفح جبل سيناء، ظهر الـدليل الواضح الذي لا يُدحض علـى عمـق خبـث السـيد، ثلاثـة آلاف رجل ماتوا لمجرد غضبه من اخـتراع منـافس مزعـوم علـى هيئـة عجل، أنا لم أفعل أكثر من قتل أخي، فعـاقبني السـيد، وأريـد أن أرى من سـيعاقب الآن السـيد عـن هـؤلاء المـوتى، ثـم واصـل قائلاً، لـقد كان الشيطان لوسيفير يعـرف جيـداً مـا الـذي يفعلـه عندما تمرد ضد الإلـه، هنـاك مـن يقـول إنـه فعـل ذلـك بـدافع الحسد، وليس هذا صحيحاً، وكـل مـا هنالـك أنـه كـان يعـرف الطبيعة الخبيثة لذلك الشخص. لطخ شيء من غبار الذهب الذي

ذرته الريح يدي قايين. فغسلهما في بركة ماء كما لو أنه ينجز طقوس هز قدميه لينفض عنهما تراب مكان تلقى فيه استقبالاً سيئاً، ثم امتطى الحمار وانصرف. كانت سحابة قاتمة فوق جبل سيناء، وهناك كان السيد.

لأسباب ليس في يدنا تفسيرها، ونحن مجرد مكررين لقصص قديمة، وبالانتقال المتواصل من سرعة التصديق الأشد سذاجة إلى الارتيابية الأشد ثباتاً، وجد قايين نفسه في ما يمكننا أن نطلق عليه، دون مبالغة، تسمية عاصفة، زوبعة في التقويم، إعصاراً زمنياً. فخلال عدة أيام، مما تلا حادثة العجل الذهبي ووجوده القصير هناك، جرت بسرعة لا تصدق تنقلاته المعروفة في الحاضر، بانبثاقها من العدم وتهاويها في العدم على شكل صور مفككة، غير مترابطة، بلا تواصل أو ارتباط في ما بينها، في بعض الحالات تعرض ما يبدو أنه معارك في حرب غير متناهية لم يعد هناك من يتذكر سببها الأول، وفي صور أخرى يظهر نوع من المهزلة الفجة والعنيفة على الدوام، نوع من مسرح دمى قاس، نشاز، متسلط. إحدى تلك الصور الكثيرة، وأشدها غموضاً وتهرباً، وضعت أمام عينيه امتداد ماء هائل حيث لا يمكن أن تُرى فيه، حتى الأفق، جزيرة واحدة أو مجرد سفينة بشراع مع صياديها وشباكهم. ماء، ولا شيء سوى الماء، ماء في كل الجهات، لا شيء إلا الماء يغمر الدنيا. كثير من هذه القصص بالطبع لم يكن بإمكان

قايين أن يكون شاهداً مباشراً عليها، وإن يكن بعضها، سواء أكانت حقيقية أم زائفة، وصلت إلى علمه عن الطريق المعروف من أحدهم سمعها من أحدهم أو عن أحدهم رواها له أحدهم. ومثال عن هذه القصص هي قضية لوط وابنتيه الفضائحية. فعندما أُهلكت سدوم وعمورة، خاف لوط من مواصلة العيش في مدينة صوغر القريبة، وقرر اللجوء إلى كهف في الجبال. وذات يوم، قالت الابنة الكبيرة للصغرى، أبونا قد شاخ، وقد يموت في أي يوم، ولم يبق في هذه الأنحاء رجل واحد يتزوج بنا، وفكرتي هي أن نسقي أبانا خمراً حتى يسكر وبعد ذلك نضطجع معه ليمنحنا نسلاً. وفعلت ذلك دون أن ينتبه لوط إليها حين اضطجاعها معه وحين قيامها من فراشه، ثم حدث الشيء نفسه مع الابنة الصغرى في الليلة التالية، ولم ينتبه حين اضطجاعها وحين قيامها، لأن العجوز كان مخموراً جداً. فحبلت الأختان، ولكن قايين، وهو الخبير الكبير في شؤون الانتصاب والقذف، وهذا ما تؤكده بكل طيبة خاطر ليليث، عشيقته الأولى والوحيدة حتى الآن، قد قال عندما رويت له هذه القصة، بالنسبة لرجل مخمور بهذه الطريقة، إلى حدّ عدم الشعور بما يحدث، لا يمكن ببساطة لشيئه أن ينتصب، وما لم ينتصب شيؤه لن يكون بالإمكان حدوث إيلاج، وبالتالي لا سبيل بأي حال إلى شيء من الحبل. أن يكون السيد قد وافق على زنا المحارم كأمر يومي ولا يستحق العقاب في

تلك المجتمعات القديمة التي شكلها هو نفسه، ليس بالأمر الذي يدعو إلى المفاجأة إذا أخذنا في الاعتبار أنها كانت طبيعة لا تزال دون قوانين أخلاقية والشيء المهم بالنسبة إليها كان انتشار الجنس البشري، سواء بالدافع النزوي، أو بمجرد الشهوة، أو لما صار يقال في ما بعد، من أجل صنع المعروف دون التدقيق لمن. لقد قال السيد نفسه، انموا وتكاثروا، ولم يضع قيوداً ولا تحفظات على الوصية، ولا حدد مع من يُصنع ذلك ومع من لا يُصنع. ومن المحتمل، وإن يكن ذلك لا يتعدى كونه نظرية عمل حتى الآن، أن ليبرالية السيد في مسألة صنع الأبناء لها علاقة بالحاجة إلى تعويض الخسائر من الموتى والجرحى التي تتعرض لها الجيوش الموالية والمعارضة كل يوم، مثلما شوهد حتى اليوم وهو ما سيظل يُشاهد بكل تأكيد على الدوام. من المناسب أن نتذكر الآن ما حدث، على مرأى من جبل سيناء وعمود الدخان الذي كانه السيد، من النشاط الإيروتيكي المبذول في تلك الليلة، بعد أن مسح الناجون دموعهم، من أجل العمل بالسرعة القصوى على إنجاب مقاتلين جدد كي يحملوا السيوف التي مات أصحابها ويذبحوا بها أبناء من خرجوا منتصرين في تلك اللحظة. وانظر فقط إلى ما حدث للمديانيين. ففي واحدة من مصادفات الحرب، توصل أهالي مديان إلى هزيمة الإسرائيليين، وهؤلاء، وقد صار من المناسب أن نقول، على الرغم من كل الدعاية التي تَنسب إليهم

العكس، قد انتهى بهم الأمر إلى الهزيمة مرات ليست قليلة في التاريخ. وبحجر تلك الهزيمة في حذائه، قال السيد لموسى، يجب أن تنتقم لبني إسرائيل من المديانيين، وهيئ نفسك بعد ذلك لأن موعد انضمامك إلى أسلافك يقترب. فوجئ موسى بالخبر غير السعيد حول الزمن القصير المتبقي له في الحياة، فأمر كل سبط من أسباط إسرائيل الاثني عشر أن يجهز ألف رجل للحرب، وهكذا اجتمع جيش من اثني عشر ألف جندي فدمروا المديانيين دون أن يفلت أحد منهم حياً. فكان بين القتلى ملوك منطقة مديان، وهم أوي وراقم وصور وحور ورابع، ففي الزمن القديم كانت للموك أسماء غريبة مثل هذه الأسماء، والمثير للفضول أن أياً منهم لم يكن يسمى جوان أو ألفونسو، مانويل أو سانتشو أو بيدرو. أما النساء والأطفال فاقتادوهم أسرى، وأخذوا كغنيمة حرب جميع البهائم والمواشي والأملاك. وسلموا ذلك كله إلى موسى والكاهن ألعازار وإلى جماعة بني إسرائيل الذين كانوا في سهول موآب، على نهر الأردن، قبالة أريحا، وهي تحديدات طبوغرافية تُذكر هنا لإثبات أننا لا نخترع شيئاً من عندنا. وبعد أن علم موسى بنتائج القتال استشاط غضباً وهو يرى الجند يدخلون المعسكر وسألهم، لماذا لم تقتلوا النساء أيضاً، هؤلاء الذين جعلوا بني إسرائيل يبتعدون عن الرب ويعبدون الملك بعل، في سلوك خبيث أدى إلى وباء أودى بحياة الكثير من الشعب، إنني آمركم بالتالي أن ترجعوا وتقتلوا

جميع الأطفال الذكور والإناث، وجميع النساء المتزوجات، أما الأخريات، العازبات، فاحتفظوا بهن لاستخدامكم. لم يفاجئ شيء من ذلك كله قايين. أما ما كان حدثاً جديداً بالمطلق في نظره، ولهذا نورده هنا بتسجيله الدقيق، فهو مسألة توزيع الغنائم، والتي نرى أنه لا بد من عرض خبرها كي تُعرف عادات الزمن، ونطلب مقدماً المعذرة من القارئ على المبالغة في الدقة التي لسنا مسؤولين عنها. وها هنا ما قاله السيد لموسى، أَحص النهب المسبي من الناس والبهائم أنت وألعازر الكاهن ورؤوس أسباط الجماعة، واقسموه مناصفة، قسمٌ للجنود الذين شاركوا في المعركة والآخر لبقية الجماعة. وارفع من حصة الجند إتاوة للسيد، رأسا واحداً من كل خمسمئة رأس، سواء من الناس أو البهائم أو البقر أو الحمير أو الغنم وكافة أنواع الحيوانات الأخرى، تأخذها وتعطيها للاويين المسؤولين عن حماية بيت السيد. فعل موسى ما أمر به الرب. وكانت الغنيمة الكاملة التي حصل عليها محاربو بني إسرائيل ستمئة وخمسة وسبعين ألف رأس من الغنم، واثنين وسبعين ألف رأس من البقر، وواحداً وستين ألفاً من الحمير واثنتين وثلاثين ألف امرأة بكر. وكان النصف الخاص بالجند الذين خرجوا إلى المعركة يضم ثلاثمئة وسبعة وثلاثين ألفاً وخمسمئة رأس من الغنم، قُدِّم منها إتاوة إلى السيد ستمئة وخمسة وسبعون رأس غنم، ومن الستة والثلاثين ألف رأس بقر، قُدم

للسيد اثنتان وسبعون بقرة، ومن الثلاثين ألفاً وخمسمئة حمار قُدم واحد وستون إتاوة للسيد، ومن نفوس الناس الستة عشر ألف امرأة، ظلت اثنتان وثلاثون امرأة إتاوة للسيد. أما النصف الآخر الذي فصله موسى عن القسم الخاص بالجند وخصصه لبقية بني إسرائيل فكان مؤلفاً كذلك من ثلاثمئة وسبعة وثلاثين ألفاً وخمسمئة رأس غنم، وستة وثلاثين ألف رأس بقر، وثلاثين ألف وخمسمئة حمار، وستة عشر ألف امرأة عزباء. وأخذ موسى هذا النصف أيضاً رأساً من كل خمسين رأس سواء من الناس أو البهائم، وقدمها للاويين الحافظين شعائر بيت السيد، مثلما أمره السيد. ولكن هذا لم يكن كل شيء. فعلى سبيل الشكر للسيد لأنه أنقذ حيواتهم، إذ لم يُقتل أحد منهم في المعركة، قدم الجنود إلى السيد، من خلال قادتهم، أمتعة الذهب التي وجدها كل واحد منهم عند نهب المدينة. أساور ودمالج وخواتم وأقراط وقلائد، فكان وزن ذلك الذهب حوالي مئة وسبعين كيلوغراماً. ومثلما تأكد بصورة أكثر من واضحة، فإن السيد، فضلاً عن تمتعه بالطبيعة بعقل استثنائي في الحساب، وكونه سريعاً جداً في إجراء الحسابات الذهنية، فإنه يمكن القول عنه كذلك إنه غني. وبينما كان قايين لا يزال مذهولاً من وفرة المواشي والجاريات والذهب، حصيلة المعركة ضد المديانيين، فكر في نفسه، يبدو واضحاً أن الحرب هي تجارة من الطراز الأول، وربما هي أفضل تجارة على

الإطلاق، بالنظر إلى السهولة التي تُكتسب بها، في رفة جفن أو دون رفة جفن، آلاف وآلاف الأبقار والأغنام والحمير والنساء الأبكار، ولا بد من تسمية هذا السيد ذات يوم باسم إله الجيوش، لأنني لا أرى له فائدة أخرى، هذا ما فكر فيه قايين، ولم يكن مخطئاً. ومن المحتمل أن اتفاق التحالف الذي يؤكد البعض أنه موجود بين الرب والبشر لا يتضمن سوى بندين اثنين، هما للعلم، أنت لا تنفعنا نحن، أنتم تنفعونني أنا. والأمر الذي لا ريب فيه هو أن الأشياء تغيرت كثيراً. ففي القديم كان السيد يظهر للناس بشخصه، بلحمة وعظمه، بل يبدو أنه كان يشعر بشيء من الرضا عن النفس في عرض نفسه للعالم، وليقل ذلك آدم وحواء اللذان انتفعا من حضوره، وليقله كذلك قايين، وإن يكن لقاؤه به قد جرى في مناسبة سيئة، ذلك أن الظروف التي نشير إليها، كما هو واضح، تتمثل في قتل هابيل، لم تكن بالظروف المناسبة لإبداء مظاهر سعادة خاصة. أما الآن فالسيد يتوارى بين أعمدة دخان، كما لو أنه لا يرغب في أن يُرى. وأنا أرى، كمراقب بسيط للأحداث، أنه لا بد أن يكون خجلاً من إحدى ممارساته المحزنة، مثل حالة أطفال سدوم الأبرياء الذين فحّمتهم النار الإلهية.

9

المكان هو نفسه، غير أن الحاضر قد تبدل. قـايين يـرى أمـام عينيه مدينة أريحا الـتي لم يُسـمح لـه، لأسـباب تتعلـق بـالأمن العسكري، من الدخول إليها. فهجوم جيش يشوع عليهـا متوقـع في أية لحظة، وعلى الرغم من كل أيمان قايين وقسمه بأنه لـيس من بني إسرائيل، فقد منعوه من الدخول، ولاسـيما أنـه لم يقـدم أية إجابة مرضية عندما سألوه، مـن تكون إن لم تكن إسـرائيلياً. فعند ولادة قايين، كان بنو إسرائيل شيئاً لم يوجد بعـد، وعنـدما بدأت تظهر، بعد زمن طويل جداً، الإحصـاءات الـتي أُجريـت، تركوا أسرة آدم خارج الإحصاء. لم يكن قايين إسـرائيلياً، ولكنـه لم يكن كذلك حيثياً أو أمورياً، أو فرزياً، أو حورياً، أو يبوسـياً. وقد أنقذه من انعدام تحديد الهويـة ذاك بيطـارٌ في جـيش يشـوع تعلق إعجاباً بحمار قايين، لـديـك دابـة بديعـة، قـال البيطـار، إنـها معي مذ غادرتُ أرض نـود ولم تخيـب ظـني قـطّ، إذا كـان الأمر كذلك، وإن أنت وافقت، فسأتعاقد معك كمساعد لي مقابل طعامك، بشرط أن تسمح لي بركـوب حمـارك بـين حـين وآخـر.

بدت الصفقة ملائمة لقايين، ولكنه عارضها، وبعد ذلك، فسأله الآخر، ماذا تعني ببعد ذلك، بعد أن تسقط أريحا، يا رجل، أريحا ليست إلا البداية، فما هو آت حرب غزو طويلة لن تكون الحاجة فيها إلينا نحن البياطرة أقل من الحاجة إلى الجنود، فقال قايين، إذا كان الأمر كذلك فإنني موافق. وكان قد سمع عن زانية مشهورة تعيش في أريحا وتدعى رحاب، ونظراً للوصف الذي يقدمه عنها من عرفوها، كان يتشوق إلى لقاء معها يجدد به دماءه، ولاسيما أنه منذ الليلة الأخيرة التي أمضاها مع ليليث لم يمتلك امرأة تحته. لم يسمحوا له بالدخول إلى أريحا، ولكنه لم يفقد الأمل في التوصل إلى النوم معها. أبلغ البيطار من يهمه الأمر بأنه قد تعاقد مع مساعد له مقابل الطعام، وهكذا وجد قايين نفسه ضمن خدمات الدعم لجيش يشوع، يعالج قروح الحمير، تحت أوامر وتوجيهات رئيسه المتطلبة، حمير ولا شيء سوى الحمير، لأن سلاح الفرسان كما هو متعارف عليه لم يكن قد اختُرع بعد. وبعد انتظار بدا للجميع مفرطاً في الطول، عُرف أن السيد قد تكلم أخيراً إلى يشوع، وأنه أصدر إليه الأمر بالكلمات التالية، خلال ستة أيام تدورون حول المدينة، أنت وجميع جندك، مرة في اليوم، وأمام تابوت العهد يمضي سبعة كهنة، وكل منهم ينفخ في بوق من قرن كبش، وفي اليوم السابع تدورون سبع مرات حول المدينة، بينما يواصل الكهنة النفخ في

الأبواق، وعندما يصدرون من أبواقهم صوتاً مديداً، يجب على جميع الشعب أن يصرخ بكل قواه، وعندئذ ينهار سور المدينة. وكان ذلك ما حدث، خلافاً لأشد الشكوك مشروعية. فبعد سبعة أيام من تلك المناورة التكتيكية غير المجربة من قبل قطّ، تهاوت الأسوار حقاً ودخل الجميع راكضين إلى المدينة، كل واحد من الفجوة التي أمامه، وتم اقتحام أريحا. دمروا كل ما فيها، وقتلوا بالسيف الرجال والنساء، الشباب والشيوخ، وكذلك البقر والغنم والحمير. وعندما تمكن قايين من دخول المدينة، كانت رحاب الزانية قد اختفت مع أسرتها كلها، فقد أُخبرت ووضعت بمنجى مكافأة لها على المساعدة التي قدمتها للسيد بأن خبأت في بيتها الجاسوسين اللذين تمكن يشوع من إدخالهما إلى أريحا. وحين علم قايين بذلك، فقد أي اهتمام برحاب الزانية. فعلى الرغم من ماضيه المؤسف، لم يكن باستطاعته تحمل الخونة، لأنهم أشد الناس استحقاقاً للازدراء في العالم حسب رأيه. أضرم جنود يشوع النار بالمدينة وأحرقوا كل ما فيها، باستثناء الفضة والذهب والنحاس والحديد الذي جعلوه، كما هي العادة، في خزائن السيد. وكان أن أطلق يشوع عندئذ التهديد التالي، فليكن ملعوناً من يحاول إعادة بناء هذه المدينة أريحا، وليمت الابن البكر لمن يضع أسسها، وأصغر أبناء من ينصب أبوابها.

في ذلك العصر كانت اللعنات عملاً أدبياً بارعاً، سواء بقوة النية أو بالتعبير الشكلي الذي توجز به، ولو لم يكن يشوع ذلك الشخص شديد الفظاظة الذي كان عليه، لاتخذناه اليوم نموذجاً أسلوبياً، على الأقل في فصل البلاغة المهم حول الأيمان واللعنات الذي قلما ترتاده الحداثة. ومن هناك انطلق جيش بني إسرائيل نحو مدينة عاي، قبل أن يخف الألم الذي سببه لهم ذلك الاسم، حيث تعلموا الدرس، بعد تعرضهم لمذلة الهزيمة، بأنه لا سبيل إلى اللعب مع السيد الرب. فقد حدث أن رجلاً يدعى عخان استولى في أريحا على بعض الأشياء التي حُكم عليها بالإتلاف، وبنتيجة ذلك غضب السيد غضباً شديداً على بني إسرائيل وصرخ، هذا ما لا يمكن قبوله، فمن تجرأ على عصيان أوامري إنما يحكم على نفسه. وفي أثناء ذلك، خُدع يشوع بالمعلومات الخاطئة التي جاءه بها الجواسيس المبعوثون، واقترف الخطأ بعدم تقدير قوة الخصم وأرسل أقل من ثلاثة آلاف رجل إلى المعركة، فهاجمهم سكان المدينة وطاردوهم، ووجدوا أنفسهم مجبرين على الهرب. ومثلما كان يحدث على الدوام، فإن اليهود يفقدون إرادة القتال لدى تعرضهم لأدنى هزيمة، ومع أنهم في وقتنا الحالي ما عادوا يبدون مظاهر القنوط مثلما كانوا يفعلون في زمن يشوع، حين كانوا يمزقون ثيابهم التي يلبسونها ويسقطون على وجوههم ويغطون رؤوسهم بالتراب، ويكون النواح والندب لا

مفر منه. وكون السيد قد أساء تربية هؤلاء الناس بالدلال منذ البدء يبدو واضحاً في تضرعات يشوع وأنين شكواه وأسئلته، لماذا جعلتنا نعبر نهر الأردن، لتهجرنا وتدفعنا إلى أيدي الأموريين فيبيدوننا، ليتنا ارتضينا البقاء في الجانب الآخر من النهر. لقد كانت المغالاة في عدم التناسب جلية جداً، فيشوع هذا نفسه الذي اعتاد على أن يخلّف وراءه آلاف القتلى بعد كل معركة، يفقد عقله عندما يموت له عدد تافه يتمثل في ستة وثلاثين من جنوده، هم من سقطوا في محاولة الهجوم على مدينة عاي. وتتواصل المبالغة، آه أيها السيد، ماذا أقول الآن، بعد أن هرب إسرائيل أمام أعدائه، سيعلم الكنعانيون وجميع سكان هذه الأرض بذلك، فيهاجموننا ويبيدوننا، ولا يعود هناك من يتذكرنا، ماذا ستفعل للدفاع عن سمعتنا. عندئذ، ودون أن يظهر السيد هذه المرة بحضوره المجسد، ولا على شكل عمود من الدخان أيضاً، بل كان كما يبدو صوتاً مدوياً في الفضاء فقط، توقظ أصداؤه كل الجبال والوديان، قال، لقد أخطأ بنو إسرائيل، لم ينفذوا عهدي الذي قطعته معهم، بل استولوا على أشياء كانت مكرسة للتدمير، سرقوها، أخفوها ووضعوها في أمتعتهم. ودوى الصوت بقوة أكبر، لهذا لم تتمكنوا من الثبات أمام أعدائكم الذين كانوا مكرسين للدمار أيضاً، ولن أكون معكم ما دام ما كان مكرساً للإتلاف لا يزال بحوزتكم، فانهض إذاً يا

يشوع واجمع الشعب، الرجل الذي يُعثر لديه على أشياء كانت مكرسة للتدمير الكامل، تأمر بأن يُحرق مع كل ما له من أسرة وأملاك. وفي اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، أمر يشوع أن يمثل الشعب أمامه، سبطاً فسبطاً. ومن سؤال إلى سؤال، من استجواب إلى استجواب، ومن وشاية إلى وشاية، انتهى به الأمر إلى التوصل إلى رجل يدعى عخان، من نسل كرمي بن زبدي بن زارح من سبط يهوذا. عندئذ كلمه يشوع بكلام ناعم، معسول، قائلاً له، يا بني، من أجل عظمةٍ أكبر لمجد الرب، أخبرني الآن بالحقيقة كلها، هنا، أمام السيد، أخبرني بما فعلته ولا تخفِ عني شيئاً. وكان قايين حاضراً المشهد وسط آخرين، ففكر، سوف يعفون عنه بكل تأكيد، لأن يشوع كان سيتكلم بطريقة أخرى لو أنه يفكر في معاقبته. وفي أثناء ذلك كان عخان يقول، حقاً إني قد أخطأت بحق السيد، ملك إسرائيل، فشجعه يشوع، تكلم، أخبرني بكل شيء، لقد رأيتُ بين الغنائم رداءً بابلياً نفيساً، وكان هناك أيضاً حوالي كيلوغرامين من الفضة وسبيكة من الذهب تزن قرابة نصف كيلوغرام، وقد اشتهيت تلك الأشياء وأخذتها، وأين تضعها الآن، أخبرني، سأله يشوع، لقد دفنتها، خبأتها مطمورة تحت التراب في خيمتي، والفضة تحتها كلها. وبالحصول على هذا الاعتراف، أرسل يشوع بعض الرجال لتفتيش الخيمة، فوجدوا الفضة

تحتها، مثلما قال. فأخذوها وأتوا بها إلى يشوع وإلى جميع بني إسرائيل، وبسطوها أمام السيد، أو بعبارة أدق أمام تابوت العهد. عندئذ أخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء وسبيكة الذهب، وأخذ كذلك بنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ما يملكه، واقتاده إلى وادي عخور. وعند الوصول إلى هناك قال يشوع، بما أنك جلبت لنا البلاء، فبسببك قُتل ستة وثلاثون من بني إسرائيل، فليقع عليك البلاء الذي يرسله إليك السيد. عندئذ انهال عليه الجميع رجماً بالحجارة ثم أضرموا النار فيه وفي كل ما كان له. وأقاموا بعد ذلك فوق عخان رجمة عظيمة من الأحجار مازالت هناك حتى اليوم، ولذلك دعي ذلك المكان وادي عخور، وتعني البلية. وهكذا هدأ غضب الرب، ومع ذلك، وقبل أن يتفرق الشعب، سيُسمع الصوت الراعد ينادي، **ها** قد أُنذرتم، من يفعل الفعلة سيدفع الثمن، فأنا السيد.

ومن أجل غزو مدينة عاي، اختار يشوع ثلاثين ألف محارب وعلمهم الكمين الذي عليهم أن يهيئوه، وهي إستراتيجية ستعطي نتيجة هذه المرة، فهناك أولاً خدعة لتقسيم القوى الموجودة داخل المدينة، وبعد ذلك هجوم من جبهتين لا يمكن صده. فكان جميع الذين سقطوا قتلى في ذلك اليوم اثني عشر ألفاً، من الرجال والنساء، أي جميع أهل عاي، لأن أحداً لم يستطع الإفلات من هناك، لم يخرج حي واحد من المدينة. وأمر

يشوع بشنق ملك عاي على شجرة وتركه معلقاً هناك حتى المساء. وعند غروب الشمس أمر بإنزال الجثة ورميها عند باب المدينة. وأقاموا فوقها رجمة عظيمة من الحجارة مازالت هناك حتى اليوم. وعلى الرغم من طول الزمن الذي انقضى، فربما لا يزال بالإمكان العثور على بعض الحصى الكبيرة المتفرقة هنا وهناك، يمكن لها أن تنفع دليلاً في إثبات هذه القصة المؤسفة المأخوذة من وثائق مغرقة في القدم. وحيال هذا الذي حدث، وبتذكر ما حدث من قبل، من إهلاك سدوم وعمورة، والهجوم على أريحا، اتخذ قايين قراراً وذهب ليخبر به رئيسه البيطار، سوف أغادر، قال له، لم أعد قادراً على تحمل رؤية كل هذا الموت حولي، وكل هذا الدم المهدور، وكل هذا البكاء وهذا الصراخ، أعد إليّ حماري فأنا بحاجة إليه للطريق، إنك تسيء التصرف، فمنذ الآن ستسقط المدن واحدة بعد أخرى، وستكون نزهة ظافرة، أما بشأن الحمار، فإن كنتَ ترغب في بيعه لي، فإنك ستُسعدني كثيراً، فقاطعه قايين، ولا بأي حال، لقد قلتُ لك إنني بحاجة إليه، فعلى قدميّ لن أصل إلى أي مكان، يمكنني أن أجد لكَ حماراً آخر دون أن تكون مضطراً لدفع ثمنه، فقال قايين، لا، فقد جئتُ إلى هنا على حماري، وعلى حماري سأغادر، ثم دس يده في جلبابه وأخرج الخنجر قائلاً، أريد حماري الآن بالذات، في هذه اللحظة، وإلا قتلتك، ستموت أنت أيضاً، سوف نموت

كلانـا، ولكنـك سـتكون الأول، فقـال البيطـار، انتظرنـي هنـا، سـأذهب لإحضـاره، ولا بـأي حـال، لأنـك لـن تعـود وحـدك، سنذهب معاً، أنت وأنـا، ولكـن تـذكر أن الخنجـر سـينغرس في خاصرتك قبل أن تتمكن من التفوه بكلمـة واحـدة ضـدي. خـاف البيطار من أن يدفع الغضب قـايين إلى التحـول مـن التهديـد إلى الفعل، وسيكون من الحماقة فقدان الحياة من أجل حمار، مهمـا كان حسن الطبع. وبالتالي ذهبـا كلاهمـا معـاً، أسـرجا الحمـار، وحصل قايين علـى بعـض الطعـام الـذي كـان يطهـى للجـيش، وعندما امتلأت حافظـات طعامـه جيـداً، أمـر البيطـار، اركـب، سيكون هذا هـو مشـوارك الأخـير علـى حمـاري. ووسـط مفاجـأة الرجل الذي لم يجد وسيلة أخرى سوى الانصياع، امتطى قـايين الحمار أيضاً بقفزة واحدة، وبعد وقت قصير كانا خارج المعسكر. إلى أين تأخذني، سأله البيطار بقلق، لـقـد أخبرتـك مـن قبـل، للقيام بمشوار، أجابه قايين. سارا وسارا، وعندما أوشـكت بقعـة الخيـام علـى الاختفـاء عـن النظـر، قـال لـه، تـرجـل. انصـاع البيطار، ولكنه حين رأى قايين يهمـز الحمـار ليواصـل رحلتـه، سأله مذعوراً، وأنا، ماذا سـأفعل، افعـل مـا تشـاء، ولكـنني لـو كنتُ مكانك لرجعتُ إلى المعسكر، مـن كـل هـذا البعـد، سـأله الآخر، لـن تضل الطريق، استرشـد بأعمـدة الـدخان تلـك الـتي مازالت تتصاعد مـن المدينـة. وهكـذا، بهـذا الانتصـار، انتهـت

مسيرة قايين العسكرية. وضيع على نفسه غزو مدن مَقيِّدة، ولِبنة، و لخيش، وعجلون، وحبرون، ودَبير، حيث تم جزر السكان عن بكرة أبيهم، وبالاستناد إلى أسطورة يجري تناقلها من جيل إلى جيل حتى أيامنا هذه، فإنه لم يُشهد في جميع الأزمنة أعجوبة أعظم من تلك التي جعل السيد فيها الشمس تتوقف كي يتمكن يشوع من الانتصار، على ضوء النهار، في المعركة ضد خمسة الملوك الأموريين. وباستثناء ذكر أعداد القتلى والجرحى الرتيب والذي لا مفر منه، وباستبعاد الحديث المعهود عن الدمار والحرائق، فإن القصة جميلة، تظهر سلطة إله لا وجود لديه، كما يبدو، لشيء مستحيل. وهذا كله كذب. صحيح أن يشوع، حين رأى أن الشمس تميل وأن ظلال الليل تحمي من تبقى من الجيش الأموري، رفع ذراعيه إلى السماء، وكانت العبارة التي سيتناقلها الخلف جاهزة، ولكنه سمع في تلك اللحظة صوتاً يهمس في أذنه، اصمت، لا تتكلم، لا تقل شيئاً، تعال للاجتماع معي على انفراد، دون شهود، في خيمة تابوت العهد، لأنه علينا أن نتبادل الحديث. فأوكل يشوع المطيع قيادة العمليات لنائبه في سلسلة المراتب القيادية وتوجه مسرعاً إلى مكان اللقاء. جلس على كرسي صغير بلا مسند وقال، **هاأنذا** هنا أيها السيد، أعلمني بمشيئتك، فقال السيد الذي كان في التابوت، أفترضُ أن الفكرة التي ولدت في رأسك هي الطلب مني

أن أجعل الشمس تتوقف، وهو كذلك يا سيدي، كيلا يتمكن أي من الأموريين من الهرب، لا يمكنني فعل ما تطلبه. ذهول مفاجئ جعل يشوع يفتح فمه، أتقول إنك غير قادر على جعل الشمس تتوقف، وكان صوته يرتجف لاعتقاده بأنه ينطق، هو نفسه، بهرطقة فظيعة، لا أستطيع وقف الشمس لأنها متوقفة في الأصل، وقد كانت متوقفة على الدوام، منذ أن تركتُها في موضعها ذاك، أنت السيد، ولا يمكنك أن تخطئ، ولكن ليس هذا هو ما تراه عيناي، فالشمس تولد من ذلك الجانب، وتمضي طيلة النهار لتختفي في الجانب المقابل، إلى أن تعود للظهور في اليوم التالي، هناك ما يتحرك بالفعل، ولكن ليس الشمس، بل الأرض، الأرض متوقفة أيها السيد، قال يشوع يائساً بصوت متوتر، لا يا رجل، عيناك تخدعانك، فالأرض تتحرك، تدور حول نفسها وتمضي دائرة في الفضاء حول الشمس، إذا كان الأمر كذلك، فلتأمر الأرض إذاً بالتوقف، فإن تكن الشمس هي التي تتوقف أو فلتتوقف الأرض، فأنا لا يهمني سوى أن أتمكن من القضاء على الأموريين، إذا ما جعلتُ الأرض تتوقف فلن يُقضى على الأموريين وحدهم، بل سينتهي العالم، سيُقضى على البشرية، سينتهي كل شيء، جميع الكائنات والأشياء الموجودة هنا، حتى إن أشجاراً كثيرة، على الرغم من جذورها الراسخة في الأرض، ستنفلت كلها مقذوفة مثل حجر ينطلق من مقلاع،

كنتُ أظن أن آلية الكون لا تعتمد على شيء آخر سوى مشيئتك أيها السيد، إنني أمارسها بكثرة، وآخرون يمارسونها باسمي، ولهذا يوجد الكثير من الاستياء، فهناك أناس أداروا لي ظهورهم، وبلغ الأمر ببعضهم حدّ إنكار وجودي، عاقبهم، إنهم خارج قانوني، خارج متناول يدي، لا يمكنني المس بهم، فحياة أي إله ليست بالسهولة التي تتصورونها، فالإله ليس سيداً دائم التحكم بـ «أريد»، «أستطيع»، «آمر»، مثلما يُعتقد، فليس ممكناً على الدوام المضي في خط مستقيم حتى التوصل إلى الأهداف، لا بد من الالتفاف والدوران، صحيح أنني وضعت علامة على رأس قايين، لم ترها قطّ، ولا تعرف من هو، ولكن ما لا يُفهم هو أنني لا أمتلك السلطة الكافية لمنعه من الذهاب إلى حيث تقوده مشيئته ومن أن يفعل ما يريده، وماذا عنا نحن، هنا، سأله يشوع، وهو لا يفكر إلا في الأموريين، ستفعلُ ما فكرتَ فيه، لن أنتزع منك مجد التوجه مباشرة إلى الرب، وماذا عنكَ أنت أيها السيد، سوف أتولى أنا تنظيف السماء من الغيوم التي تغطيها الآن، وهذا أمر يمكنني القيام به دون مشقة، أما المعركة فعليك أن تكسبها أنت، إذا ما منحتنا الحماسة فسوف تنتهي المعركة قبل أن تغيب الشمس، سأفعل ما هو ممكن، لأن المستحيل غير ممكن. ورأى يشوع في هذه الكلمات إشارة وداع، فنهض عن الكرسي الذي بلا مسند، ولكن السيد قال له مع ذلك، لا تخبر

أحداً بما دار بيننا هنا، فالقصة التي ستتردد في المستقبل يجب أن تكون القصة التي نريدها نحن وليس غيرها: يشوع يطلب من الرب أن يوقف الشمس فيستجيب ويفعل ذلك، ولا شيء أكثر، لن ينطق فمي إلا بما يؤكد هذه القصة أيها السيد، اذهب الآن وأكمل القضاء على هؤلاء الأموريين. رجع يشوع إلى الجيش، فصعد إلى رابية ورفع ذراعيه ثانية وصاح، رباه، يا إله السماء والعالم وبني إسرائيل، أتوسل إليك أن توقف حركة الشمس نحو الغروب كي تتحقق مشيئتك دون عقبات، أعطني ساعة أخرى من الضوء، ساعة واحدة فقط، كيلا يختبئ الأموريون الجبناء فلا يتمكن جنودك من العثور عليهم في الظلام لتنفيذ حكمك فيهم بانتزاع الحياة منهم. وكرد عليه جاء صوت الرب المدوي من السماء التي صارت نظيفة من الغيوم، ليبث الرعب في قلوب الأموريين والحماسة في بني إسرائيل، لن تتحرك الشمس من مكانها الذي هي فيه لتكون شاهداً على معركة بني إسرائيل من أجل الأرض الموعودة، وانتصر أنت يا يشوع على هؤلاء الملوك الأموريين الخمسة الذين يتحدونني، وستكون كنعان الثمرة الناضجة التي تسقط بين يديك في وقت قريب، إلى الأمام إذاً، فلا ينجو أموري واحد من حد سيف بني إسرائيل. هناك من يقول إن تضرع يشوع إلى السيد كان أبسط، وأكثر مباشرة، وأنه اقتصر على القول، يا شمس دومي على جبعون، وأنت أيها

القمر توقف فوق وادي أيَّلـون، ممـا يثبـت أن يشـوع يتقبـل أنـه عليه أن يقاتل أيضاً بعد غياب الشمس ودون أي ضوء آخر سوى قمـر شـاحب يوجـه رأس السـيف وحربـة الـرمح نحـو نحـر الأموريين. الرواية مهمة، ولكنها لا تبدل ما هو جوهري، أي أن الأموريين هُزمـوا في صـفوفهم كلـها وأن جميـع ائتمانـات النصـر كانت للسيد الذي أوقف الشمس، فلـم يحـتج إلى انتظـار القمـر. ولكل امرئ حقه، مثلما هو العدل. وهنا ما كُتب في كتاب يسـمى العدل، لا أحد يعرف الآن أين هو. طـيلة يوم كامل تقريباً ظلـت الشمس ثابتة لا تتحرك، هناك في كبـد السـماء، دون أي تعجـل للاختفاء في الأفق، ولم يحدث قطّ، لا قبل ولا بعد، أن كان يـوم مثل ذاك، حيث استجاب الرب، لأنه يقاتل من أجل إسرائيل، لصوت إنسان.

10

قايين لا يعرف أين هو، لا يتوصل إلى التمييز إن كان الحمار يحمله عبر أحد دروب الماضي الكثيرة أم عبر مسالك المستقبل الضيقة، أم إنه يسافر ببساطة عبر حاضر آخر لم تُتح له معرفته حتى الآن. ينظر إلى الأرض الجافة، والعوسج الشوكي، والأعشاب القليلة التي حرقتها الشمس، ولكن الأرض الجافة والشوك والأعشاب المحروقة هي أكثر ما يتوافر في تلك الأنحاء الموحشة. لا دروب في مجال الرؤية، مطلقاً، فمن هنا يمكن الوصول إلى جميع الأمكنة أو لا أي مكان، كوجهات تتجدد أو ربما أنها قررت انتظار أزمنة أفضل لتظهر للعيان. كان الحمار يطأ الأرض بثبات، ويبدو أنه يعرف إلى أين يمضي، كما لو أنه يتبع أثراً، علامات الذهاب والمجيء المختلطة تلك التي تخلفها أخفاف أو حوافر أو أقدام عارية وتحتاج إلى تفحصها بعناية كيلا تكون رجوعاً إلى الوراء لذاك الذي يريد التقدم مباشرة، دون انحراف، حتى نجم القطب. فقايين الذي كان فيما مضى عاجن طين، فضلاً عن كونه فلاحاً مبتدئاً قبل ذلك، هو الآن مقتفي أثر متيقظ، حتى إنه، حين يبدو

متردداً، لا يضيع أثر من مروا من هنا قبلاً، سواء أوجدوا أم لم يجدوا مكاناً يتوقفون فيه ويقولون هناك لأنفسهم، لقد وصلت. وقد كانت لقايين عينان جيدتان، لا شك في ذلك، ولكنهما ليستا جيدتين بحيث تسمحان له في تلك اللحظة بالتعرف، بين الإشارات الكثيرة، إلى الآثار التي خلفتها قدماه بالذات، ضغط أحدثه كعب أو جرجرة تسببت بها ساق متعبة. فقد مرَّ قايين من هنا، أجل، هذا صحيح. وسيكتشفه حين يواجه فجأة ما تبقى من البيت المهدم الذي احتمى فيه من المطر في زمن مضى، وحيث لا يمكنه الاحتماء اليوم لأن ما كان متبقياً من السقف قد انهار، ولم تعد تُرى الآن سوى أجزاء من الجدران المقوضة، والتي مع انقضاء شتاءين أو ثلاثة شتاءات أخرى ستختلط نهائياً بالأرض التي بُنيت منها، أرض تعود إلى الأرض، وتراب يعود إلى التراب. ومن هنا لن يذهب الحمار إلا إلى حيث يراد اقتياده، فقد انتهى الوقت الذي كان فيه هو الدليل الوحيد، أم إنه لم ينتهِ، لأنه إذا ما تُرك طليقاً، ولنتصوره كذلك، فربما سيكون لتذكر الإسطبل القديم القوة الكافية لاقتياده حتى المدينة التي انطلق منها حاملاً هذا الرجل على متنه، منذ لا يعلم كم من السنوات. من المنطقي أن قايين لم ينسَ طريق الوصول إلى القصر. وهكذا بين أن يكون بمقدوره تبديل الاتجاه، وهجر مختلف أزمنة الحاضر التي تنتظره قبل هذا اليوم وبعد هذا اليوم، والعودة إلى هذا الماضي ولو ليوم واحد، أو يومين، وربما أكثر، ولكن ليس طوال كل ما تبقى له في الحياة، لأن قدره لم يصل

إلى الاكتمال بعد، مثلما سنعرف في الوقت المناسب. همز قايين بكعبيه خاصرتي الحمار، فإلى الأمام يوجد الطريق الذي سيقوده إلى المدينة، وأياً يكن النبيذ الذي سكبوه في الكأس، بانتظاره، لا بد له من شربه. لم يبدُ على المدينة، عند رؤيتها عن قرب، أنها قد توسعت، إنها البيوت نفسها المضغوطة بثقلها نفسه، واللِبن نفسه، والقصر وحده هو ينتصب بارزاً على كتلة الأبنية القديمة الرمادية، ومثلما هو متوقع، وفقاً لقواعد هذه القصة، كان العجوز نفسه عند مدخل الساحة، لدى الانعطاف من الناصية، ومعه النعجتان المربوطتان بالحبل نفسه. إلى أين ذهبت، وهل رجعت لتبقى، سأل قايين الذي ردّ عليه ساخراً، وأنت، مازلتَ في هذه الأنحاء، لن أموت مادامت هاتان النعجتان على قيد الحياة، لابد أنني ولدتُ للعناية بهما، للحيلولة دون أن تأكلا الحبل الذي يقيدهما، هناك آخرون ولدوا بأقدار أسوأ من قدرك، أتتكلم عن نفسك، ربما سأجيبك في مناسبة أخرى، لأنني على عجلة من أمري الآن، هل ينتظركَ أحد، لست أدري، سأبقى هنا لأرى إن كنت ستخرج أم ستظل في القصر، تمنى لي حظاً طيباً، من أجل أن أتمنى لك حظاً طيباً يجب أن أعرفُ أولاً ما هو الطيب في نظرك، إنه شيء لا أعرفه أنا نفسي، أتعرف أن ليليث قد أنجبت ابناً، سأله العجوز، هذا منطقي، فقد كانت حبلى عندما رحلتُ من هنا، معك حق، وقد صار لها ابن ذكر، وداعاً، وداعاً. ودون حاجة إلى أوامر، تقدم الحمار نحو بوابة القصر، وتوقف هناك. ترجل قايين عن البردعة،

وسلّم الرسن لعبد هرع إليه، وسأله، هل يوجد أحد في القصر، أجل، السيدة موجودة، اذهب وقل لها إن زائراً قد وصل، فتلعثم العبد، هابيل، اسمك هابيل، إنني أتذكرك جيداً، أسرع إذاً. صعد العبد الأدراج ورجع بعد قليل وبرفقته صبي في حوالي التاسعة أو العاشرة من عمره، ففكر قايين، هذا هو ابني. أومأ له العبد أن يتبعه. وفي أعلى الدرج كانت تقف ليليث، باهرة الجمال، مثيرة للشهوة كما في السابق، قالت، لقد عرفتُ أنك ستصل اليوم، ولهذا لبست على هذا النحو، كي تروقك رؤيتي، من هو هذا الطفل، اسمه إينوك وهو ابني. صعد قايين الدرجات القليلة التي تفصله عن ليليث، أمسك يديها اللتين تمدهما إليه، وبعد هنيهة ضمها بين ذراعيه. سمعها تتنهد، وأحس بجسدها كله يرتعش، وعندما قالت له، لقد رجعتَ، لم يستطع أن يجيبها إلا بالقول، نعم، لقد رجعت. وبإشارة منها أخذ العبدُ الطفل وتركهما وحيدين. تعال معي، قالت له. فدخلا إلى قاعة الانتظار وتأكد قايين من أن السرير الضيق ومقعد البواب اللذين خصصا له قبل عشر سنوات مازالا هناك. كيف عرفتِ أني سأصل اليوم، مادمتُ أنا نفسي قد وجدت نفسي في هذه الأنحاء دون أن أنتبه إلى ذلك، لا تسلني قطّ كيف أعرف ما أقول إني أعرفه لأنني لا أستطيع الإجابة، ففي هذا الصباح، عندما استيقظتُ، قلتُ لنفسي بصوت عال، سيرجع اليوم، قلتُ ذلك كي تسمعه أنت، وهذا ما حدث، وهاأنتذا هنا، ولكنني لا أفكر في سؤالك كم من الوقت ستبقى، لقد

وصلتُ للتو، وليس هذا هو الوقت المناسب للكلام عن المغادرة، لماذا جئت، هذه قصة طويلة، ولا يمكن روايتها بهذه الطريقة، بين بابين، تعال إذاً، ولتروها لي في الفراش. دخلا إلى الحجرة التي بدا له أن شيئاً لم يتبدل فيها، كما لو أن ذاكرة قايين، خلال فراقه الطويل، لم تعدّل ذكرياتها واحدة فواحدة كيلا يُفاجأ الآن. بدأت ليليث بالتعري، وبدا أن الزمن لم يمر عليها. عندئذ سألها قايين، وماذا عن نوا، لقد مات، قالت بلهجة طبيعية، دون أن يرتعش صوتها أو تحرف نظرها، فسألها قايين، هل قتلتِهِ، لا، أجابت ليليث، فقد وعدتك ألا أقتله، لقد مات موتاً طبيعياً، هذا أفضل، قال قايين، المدينة أيضاً صارت تدعى إينوك، تذكرت ليليث، فقال قايين، مثل اسم ابني، أجل، من أطلق هذا الاسم، على من، على المدينة، الاسم أطلقه نوا، ولماذا أطلق على المدينة اسم ابن ليس منه، لم يخبرني بذلك قطّ ولم أسأله أنا قطّ، أجابت ليليث وقد استلقت في الفراش، ومتى مات نوا، سألها قايين، منذ ثلاث سنوات، هذا يعني أنه كان في نظر الجميع، خلال سبع سنوات، أبا إينوك، كان يتظاهر بأنه لا يعلم، الجميع هنا يعرفون أنكَ أنت أبو إينوك، وإن يكن صحيحاً أن الأشخاص الكبار وحدهم هم الذين يتذكرون مع مرور الوقت، وعلى كل حال، ما كان نوا سيعامله بطريقة أفضل لو أنه ابنه فعلاً، لا يبدو أنه الرجل الذي عرفته، كما لو أنه شخصان اثنان، لا أحد منا يظل شخصاً واحداً، فأنتَ نفسك يا قايين، إنك هابيل أيضاً، وماذا عنكِ أنت، أنا

النساء جميعاً، أسماؤهن هي أسمائي، قالت ليليث، والآن تعال، تعال بسرعة، تعال وأخبرني بحال جسدك، خلال عشر سنوات لم أعرف امرأة أخرى، قال قايين بينما هو يستلقي على الفراش، وأنا لم أعرف رجلاً آخر، قالت ليليث مبتسمة بخبث، هل ما تقولينه صحيح، لا، فقد مرّ في هذا الفراش بعضهم، وليسوا كثيرين، لأني لم أستطع تحملهم، كنتُ أشعر برغبة في قطع أعناقهم عندما يُفرغون، أشكركِ على صراحتك، أنتَ لن أكذب عليك أبداً، قالت ليليث وعانقته.

اطمأنت نفساهما، وعوض الجسدان طول الفراق مع احتساب فوائد عالية جداً، وحان وقت استعراض ما مضى حتى ذلك اليوم. كانت ليليث قد سألته من قبل، لماذا جئت، ولكنه قال إنه لا يعرف كيف وصل، ولهذا عدلت ليليث الاستجواب، ما الذي فعلته خلال هذه السنوات كلها، فكان السؤال الذي أجاب عنه بالقول، لقد رأيت أموراً لم تحدث بعد، أتعني أنكَ تنبأت بالمستقبل، لم أتنبأ به، كنتُ فيه، لا يمكن لأحد أن يكون في المستقبل، لن نسميه مستقبلاً إذاً، فلنسمه حاضراً آخر، أو حواضر متعددة أخرى، لست أفهمكَ، أنا أيضاً وجدت صعوبة في فهمه في البدء، ولكنني رأيت بعد ذلك ـ مادمت هناك، وقد كنتُ هناك بالفعل ـ أنني في حاضر آخر، وما كان مستقبلاً لم يعد كذلك، فكان الغد هو الآن، لن يصدقك أحد، لا أفكر في إخبار أحد سواكِ بذلك، مشكلتكَ أنك لم تأتِ معك بأي دليل،

بشيء ما، من ذلك الحاضر الآخر، لم يكن ماضياً واحداً، وإنما مواض عديدة، أعطني مثالاً. عندئذ حدث قايين ليليث عن الرجل المدعو أبراهام الذي أمره السيد أن يقدم إليه ابنه قرباناً، وبعد ذلك عن برج عظيم أراد به البشر الوصول إلى السماء فقوضه السيد بنفخة واحدة، ثم حدثها عن مدينة يفضل الرجال فيها مضاجعة رجال آخرين وعقوبة النار والكبريت التي صبها السيد عليها، دون أن ينجو حتى الأطفال الذين لا يعرفون بعد ما سيرغبون فيه في المستقبل، وأتبع ذلك بالحديث عن اجتماع أناس ضخم عند سفح جبل يسمونه جبل سيناء، وعن صنع عجل ذهبي عبدوه، وبسبب ذلك مات كثيرون، وعن مدينة مديان التي تجرأت على قتل ستة وثلاثين جندياً من جيش يسمى بني إسرائيل فأبيد أهلوها حتى آخر طفل منهم، وعن مدينة أخرى تدعى أريحا، تهدم سورها بدوي أبواق من قرون الكباش ثم أُهلك كل من فيها من رجال ونساء، شباب وشيوخ، وكذلك الأبقار والأغنام والحمير. وأنهى قايين بالقول، هذا هو ما رأيته، وأكثر من ذلك مما لا تتوصل كلماتي إلى وصفه، أتظن حقاً أن ما رويته لي سيحدث في المستقبل، سألته ليليث، خلافاً لما يقال عادة،فإن المستقبل مكتوب مسبقاً، وإن كنا غير قادرين على قراءة صفحاته، قال قايين ذلك بينما هو يتساءل من أين خرج بهذه الفكرة الثورية، وما رأيك في واقع أنكَ من اختير ليعيش هذه التجربة، لست أدري إن كنت مختاراً، ولكنني أعرف أمراً، فقد تعلمتُ شيئاً،

ما هو، أن إلهنا، خالق السماء والأرض، مجنون تماماً، كيف تتجرأ على قول إن السيد الإله مجنون، لأنه لا يمكن إلا لمجنون لا يعي أعماله أن يتقبل أن يكون المذنب المباشر في موت مئات آلاف الأشخاص ثم يتصرف بعد ذلك كأن شيئاً لم يحدث، اللهم إلا، وهذا ممكن، إذا لم يكن الأمر جنوناً لا إرادياً، حقيقياً،وإنما مجرد خبث صافٍ وبسيط، لا يمكن للإله أن يكون خبيثاً، وإلا لن يكون إلهاً، فمن أجل الخبث والشر لدينا الشيطان، ولا يمكن أن يكون طيباً الإله الذي يصدر الأمر لأب بقتل ابنه وإحراقه لمجرد اختبار إيمانه، فهذا لا يمكن أن يخطر لأكثر الشياطين خبثاً، فقالت له ليليث، لستُ أعرفك، فأنتَ لست الشخص نفسه الذي كان ينام قبلاً في هذا الفراش، ولن تكوني أنتِ المرأة نفسها لو أنكِ رأيت ما رأيتُه، أطفال سدوم المتفحمين بنار السماء، أي سدوم هي تلك، سألته ليليث، إنها المدينة التي يفضل رجالها الرجال بدل النساء، وهل مات جميع ساكنيها لهذا السبب، أجل، جميعهم، لم تفلت نفس واحدة، لم ينجُ أحد، فعادت ليليث تسأل، بمن في ذلك النساء اللاتي كان يزدريهن أولئك الرجال، أجل، فقالت، هذا ما يحدث على الدوام، فالنساء حين تُمطر السماء عليهن من جانب، تأتيهن الريح من الجانب الآخر، الأبرياء معتادون على كل حال على دفع الثمن عن المذنبين، يا لفكرة العدالة الغريبة التي لدى السيد، إنها فكرة من ليس لديه أدنى تصور لما يمكن أن تكون عليه عدالة بشرية،

فسألته ليليث، وأنتَ، هل لديك ذلك التصور، أنـا لسـت شـيئاً أكثر من قايين، من قتل أخاه وحُكم عليه بهذه الجريمة، فقالت ليليث، حُـكم عليك بـتساهل كبير، قل هذا أيضاً، مـعكِ حـق، وأنا آخر من يمكنه إنكار ذلك، ولكن المسؤولية الرئيسة يتحملـها الإله، ذاك الذي ندعوه السيد، لـو لم تقتل هابيل لما جئـتَ إلى هنا، وإذا ما فكرنا بأنانية فإن أمراً أدى إلى آخر، لـقد عشتُ مـا كان عليّ أن أعيشه، قتل أخي والنوم معك في الفراش نفسه هـي مفاعيل السبب نفسه، أي سبب، أننـا جميعنـا في يـد الإلـه، أو القدر، وهذا هو اسمه الآخر، وما هي نواياك الآن، سألته ليليث، الأمر يعتمد، يـعتمد على أي شيء، إذا ما توصلتُ ذات يوم لأن أكون سيد نفسي، وإذا ما انتهى هذا التنقل من زمن إلى آخر دون أخذ مشيئتي في الاعتبار، فسوف أعـيش مـا يسـمى عـادة حيـاة طبيعية، مثل الآخرين، لـن تعيش مثل الجميع، بل ستتزوجني، ولدينا ابننا، وهذه مدينتنا، وسـأكون وفيـه لـك مثـل وفـاء لحـاء الشجرة لجذعها، ولكن إذا لم يحدث ذلك، وتواصل هـذا القـدر المشؤوم، فسيكون محكوماً عليّ أينما وجدتُ أن انتقل من زمن إلى آخر، ولن نكون بأمان قطّ، لا أنتِ ولا أنا، ابتـداء مـن يـوم غـد بالذات، وفوق ذلك، مـاذا فوق ذلك، سألته ليليـث، أشـعر أنـه يجب أن يكون ثمة مغزى لما يحدث لي، مغزى ما، وأشـعر أنـه عليّ عدم التوقف في منتصف الطريق دون أن أعرف مـا هـو ذلـك المغزى، فقالت ليليث، هـذا يعني أنك لن تبقى، وأنكَ سـترحل

في أحد هذه الأيام، أجل، هذا ما أظن أنه سيحدث، فإذا كنتُ قد ولدت لأعيش شيئاً مختلفاً فعليّ أن أعرف ما هو وسببه، فقالت ليليث، فلنستمتع إذاً بالوقت المتبقي لنا، تعال إليّ. تعانقا وتبادلا القبلات، ودون أن يفلت أحدهما الآخر تدحرجا على الفراش من جانب إلى آخر، وعندما وجد قايين نفسه فوق ليليث وتهيأ للدخول فيها، قالت له، العلامة التي على جبينك صارت أكبر، فسألها قايين، أهي أكبر بكثير، ليس كثيراً، يخطر لي أحياناً أنها ستكبر، وتكبر، وتكبر ممتدة إلى جسدي كله وتحولني إلى أسود، هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقصني، قالت ليليث وهي تطلق قهقهة مدوية، تلتها على الفور أنّة لذة حين أولج فيها، دفعة واحدة، حتى العمق.

بعد أسبوعين من ذلك فقط اختفى قايين. كان قد اكتسب عادة القيام بنزهات طويلة مشياً على الأقدام حول المدينة، ليس لأنه بحاجة، كما في المرة السابقة، إلى التعرض للشمس والهواء الطلق، لأنه لم يفتقر إليهما بصورة طبيعية خلال السنوات العشر الفائتة، وإنما كان يخرج للنزهة كي يهرب من أجواء القصر الثقيلة، إذ باستثناء الساعات التي كان يقضيها في الفراش مع ليليث، لم يكن لديه شيء يفعله، إلا تبادله بضع عبارات، دون نتيجة جديرة بالذكر، مع إينوك، ابنه المجهول بالنسبة إليه.

11

فجأة، وجد نفسه يدخل من بوابة مدينة لم يكن فيها من قبل قطّ. وفكر على الفور في أنه لا يحمل معه قرشاً واحداً، ولا يجد كذلك أي طريقة سريعة للحصول عليه، لأنه لا يعرف أحداً هناك. ولو أنه خرج للنزهة ومعه الحمار، لكانت المشكلة المادية قد حُلت، فبهيمة مثل حماره تساوي وزنها ذهباً مثلما يمكن أن يوافق على ذلك أي مشترٍ. سألَ رجلين كانا يمران عن اسم المدينة، فأجابه أحدهما، هذا المكان يسمونه أرض عَوص. النبرة الطبيعية، دون أي ملمح من فقدان الصبر، شجعت قايين على توجيه سؤال آخر، وأين يمكنني العثور على عمل، ثم أضاف كما لو أنه بحاجة لذكر تبرير، المسألة أنني وصلت للتو، ولا أعرفُ أحداً هنا. نظر إليه الرجلان من أعلى إلى أسفل، ولم يجدا فيه مظهر متسول أو متشرد، وتوقفا للحظة فقط لإمعان النظر في العلامة التي على جبينه، وقال الرجل الثاني، أغنى

أصحاب الأملاك في هذه الأنحاء وفي الشرق كله يدعى أيوب، اذهب واطلب منه أن يمنحك عملاً، وربما يحالفك الحظ، فسأله قايين، وأين أستطيع العثور عليه، تعال معنا، سنأخذك إليه، إن لديه الكثير من الخدم ولن يلحظ زيادة أو نقصان واحد منهم، أهو غني إلى هذا الحد، بل هو واسع الثراء، تصور ما الذي يعني كون المرء مالكاً لسبعة آلاف رأس غنم، وثلاثة آلاف جمل، وخمسمئة فدان من البقر، وخمسمئة أتان، فقال قايين، لدى الفقراء مخيلة واسعة، بل يمكن القول إنهم لا يملكون شيئاً آخر، ولكنني أعترف أنني لا أصل إلى مثل ذلك. ساد صمت قصير، ثم قال أحد الرجلين، كما لو أن قوله مصادفة، لقد التقينا بكَ من قبل، أنا أيضاً تراودني هذه الفكرة بصورة غامضة، قال قايين ذلك بشيء من التمعن، أنت تدعى قايين، وكنتَ في سدوم عندما أُهلكت المدينة، لدينا ذاكرة جيدة، أجل، هذا صحيح، الآن تذكرت، ها أنت تعلم، فأنا وزميلي ملاكان من ملائكة السيد، ومن أكون أنا لأجد ملاكين من ملائكة السيد يرغبان في مساعدتي في هذا الوقت الصعب، لقد كنتَ طيباً مع أبراهام، وساعدتنا كيلا يصيبنا سوء في بيت لوط وهذا عمل يستحق مكافأة، لا أعرف كيف أشكركما، إننا ملائكة، وإذا نحن لم نصنع الجميل فمن سيصنعه، سأل أحدهما. ومن أجل أن يستجمع الشجاعة، تنفس قايين بعمق ثلاث مرات قبل أن

يتكلم، إذا كانت مهمتكما في سدوم إهلاك المدينة، فما هي المهمة التي جئتما من أجلها الآن، لا يمكننا الكشف لأحد عن مهمتنا، نبهه أحدهما، فقال الآخر، حسن، ليس الأمر سراً، ولن يكون كذلك بالنسبة للجميع عندما تحدث الأمور، أضف إلى ذلك أن هذا الذي معنا قد أثبت من قبل أنه رجل موثوق، ستتحملُ أنت مسؤولية البوح له بالسر، وتصور لو أنه قرر الذهاب راكضاً ليخبر أيوب بذلك، الاحتمال الأكبر أن أيوب لن يصدقه، لا بأس، افعل ما يحلو لكَ، وأنا سأغسل يدي في هذا الشأن. عندئذ توقف قايين وقال، ليس هناك ما يستحق أن تتجادلا من أجلي، أخبراني إذا رغبتما، وإن لم ترغبا فلا تخبراني بشيء، فأنا لا أجبر أحداً ولا أطلب شيئاً. وحيال كل تلك السماحة، استسلم حتى الملاك المتحفظ وقال للآخر، أخبره بالأمر، ثم توجه إلى قايين بنظرة صارمة، وأمره، أقسم إنك لن تخبر أحداً بما ستسمعه، أُقسم على ذلك، قال قايين وهو يرفع يده اليمنى. عندئذ بدأ الملاك الآخر القول، منذ بضعة أيام، ومثلما يحدث بين حين وآخر، اجتمعت الكائنات السماوية أمام السيد وكان إبليس حاضراً أيضاً، فسأله الإله، من أين أنت آتٍ الآن، وأجاب إبليس، كنتُ أقوم بجولة على الأرض، فوجه إليه السيد سؤالاً آخر، هل رأيتَ عبدي أيوب، لا وجود لمثيل له في الدنيا، إنه رجل مستقيم ونزيه، شديد التدين، ولا يسيء إلى

أحد. أما إبليس الذي كان يستمع بابتسامة مستهزئة، مستخفة، فسأل الإله، أوتظن أن مشاعره نزيهة، أليس صحيحاً أنكَ، كمن يحيطه بسور، تحميه من كل أذى، هو وأسرته وكل ما يملكه. توقف قليلاً ثم واصل قائلاً، ولكن جرب أن ترفع يداً ضد ما هو له وسترى إن كان لا يلعنك ويجدف ضدك. عندئذ قال السيد لإبليس، كل ما يملكه سيكون تحت تصرفك، ولكن دون أن تمسه هو شخصياً بأذى. سمعه إبليس وانصرف، ونحن موجودان هنا الآن، فسألهما قايين، لماذا أنتما موجودان، كيلا يبالغ إبليس، كيلا يتجاوز الحدود التي رسمها له السيد. عندئذ قال قايين، إن كنت قد فهمتُ جيداً، فإن السيد وإبليس دخلا في رهان، ولكن لا يمكن لأيوب أن يعرف أنه الهدف في لعبة بين الإله والشيطان، بالضبط، هتف الملاكان معاً. فقال قايين، لا يبدو لي التصرف نظيفاً جداً من جانب السيد، فإذا كان ما سمعته صحيحاً فإن أيوب، وعلى الرغم من ثرائه، رجل صالح ونزيه، والأدهى أنه شديد التدين، لم يرتكب أية جريمة، ولكنه سيُعاقب دون سبب بفقدان ممتلكاته، ربما يكون السيد عادلاً، كما يقول أناس كثيرون، ولكنه لا يبدو لي كذلك، وهذا الحال يُذكّرني بما حدث لأبراهام الذي أمره الإله، ليختبره، بقتل ابنه إسحاق، وأنا أرى أنه إذا كان السيد لا يثق بالأشخاص الذين يؤمنون به، فلا أجد سبباً لأن يثق هؤلاء الأشخاص بالسيد،

مقاصد السيد بعيدة الغور، حتى نحن الملائكة لا نستطيع الدخول في تفكيره، فردّ قايين، إنني ضجر من هذا الهذر عن أن مقاصد السيد عميقة الغور، لابد للإله من أن يكون شفافاً وصافياً مثل البلور بدل كل هذا الرعب، بدل هذا الخوف المتواصل، وباختصار، أرى أن الإله لا يحبنا، إنه هو من منحك الحياة، الحياة منحني إياها أبي وأمي، ضما لحماً إلى لحم فولدتُ أنا، ولا يُذكر أن الإله كان موجوداً في ذلك الفعل، الإله موجود في كل مكان، وخاصة حين يأمر بالقتل، فطفل واحد ممن ماتوا متفحمين في سدوم يكفي لإدانته دون غفران، ولكن العدالة في نظر الإله مجرد كلمة فارغة، فهو يجعل أيوب يعاني الآن في رهان ولن يحاسبه أحد على ذلك، حذار يا قايين، إنك تكثر من الكلام، السيد يسمعك، وعاجلاً أو آجلاً سيعاقبك، السيد لا يسمع، السيد أصم، من كافة الأنحاء تتعالى إليه التضرعات، إنهم الفقراء، التعساء، المنكوبون، جميعهم يتوسلون إليه العلاج الذي ينكره عليهم العالم، فيدير لهم السيد ظهره، لقد بدأ بحلف مع العبرانيين وهو الآن يعقد اتفاقاً مع الشيطان، ولهذا لا أرى موجباً لوجود إله. فاحتج الملاكان بنزق وهددا بتركه هناك، بلا عمل، فانتهت بذلك المناظرة اللاهوتية، وأُقر السلام إلى هذا الحد أو ذاك. بل وصل الأمر بأحد الملائكة إلى القول، أظن أن السيد سيروقه أن يتناقش معك حول هذه المسائل، فقال قايين،

ربما يفعل ذات يوم. كانوا قد صاروا أمام باب بيت أيوب الكبير، فطلب أحد الملاكين التكلم إلى القهرمان الذي لم يأت بنفسه، بل أرسل ممثلاً له لمعرفة ما الذي يريدونه، فقال أحد الملاكين، نريد عملاً، ليس لنا، لأننا من أمكنة أخرى، وإنما لصديقنا هذا الذي وصل للتو ويريد بدء حياة جديدة في أرض عَوص، فسأل مندوب القهرمان، ما الذي تُحسن عمله أنت، أفهمُ قليلاً بالحمير، فقد كنتُ مساعد بيطار في جيش يشوع، جيد جداً، هذه توصية جيدة، سوف أستدعي عبداً ليرافقك وتلتحق بالعمل فوراً، أريدك أن تخبرني باسمك فقط، أنا قايين، ومن أين أنت آتٍ، من أرض نود، لم أسمع بها قطّ، لستَ أول من لم يعرفها، فمن يقول أرض نود كمن يقول أرض العدم. عندئذ قال أحد الملاكين لقايين، إنكَ في أيد أمينة، وقد صار لك عمل، إن كان لهذا العمل أن يدوم، أجابه قايين بابتسامة منطفئة، فتدخل مندوب القهرمان، لا تفكر في الأسوأ، فمن يحالفه الحظ بالدخول يوماً إلى هذا البيت سيجد عملاً مدى الحياة، ليس هناك رجل أطيب من أيوب. ودّع الملاكان قايين بعناق ورجعا إلى مهمتهما كمراقبين لتنفيذ أوامر السيد، ومن يدري إن كان ذلك كله سينتهي إلى نتيجة أفضل من تلك النتيجة التي تبدو موعودة.

من المؤسف أن النتيجة كانت أسوأ من كل ما يمكن تصوره. فمزوداً ببطاقة السلطة الواسعة الممنوحة له، شن إبليس الهجوم في آن واحد على كافة الجبهات. فذات يوم، بينما أبناء وبنات أيوب، وهم سبعة بنين وثلاث بنات، يجلسون إلى المائدة يشربون النبيذ في بيت أخيهم الأكبر، جاء إلى بيت أيوب رسول، هو رجلنا قايين تحديداً، وكان يعمل مع الحمير كما نعلم، وقال له، **كانت** الأبقار تحرث والأُتن ترعى قربها عندما ظهر السبئيون فجأة وسرقوا كل شيء وضربوا الغلمان بحد السيف، فلم ينجُ أحد سواي أنا لأحمل إليكَ الخبر. وكان قايين لا يزال يتكلم عندما جاء مراسل آخر وقال، **نار** الرب سقطت من السماء فأحرقت الأغنام والغلمان وحوّلتهم جميعاً إلى رماد، وقد نجوتُ أنا وحدي لأنقل إليك الخبر. وبينما هذا يتكلم إذ جاء آخر وقال، **توزع** الكلدانيون في ثلاث فرق وانقضوا على الجمال وأخذوها بعد أن ضربوا الغلمان بحد السيف، ونجوت أنا وحدي لأُخبرك. وبينما هذا يتكلم دخل رسول آخر وقال، **كان** بنوك وبناتك يأكلون ويشربون نبيذاً في بيت أخيهم الأكبر عندما هبت ريحٌ شديدة من الجانب الآخر في الصحراء فزعزعت أعمدة البيت الأربعة فانهار عليهم وقتلهم جميعاً وتمكنتُ أنا وحدي من الإفلات لأُخبرك. فنهض أيوب ومزق ثوبه وقص شعر رأسه ثم سجد بعد ذلك على الأرض وقال، **عرياناً** خرجت من بطن

أمي وعرياناً سأعود إلى بطن الأرض. السيد أعطاني والسيد أخذ مني، فليكن مباركاً اسم السيد.

كارثة تلك الأسرة التعيسة لن تتوقف عند هذا الحد، ولكن قبل أن نواصل، فلنسمح لأنفسنا بعرض بعض الملاحظات. الملاحظة الأولى، إبداء الاستهجان حيال واقع أن إبليس قادر على التصرف على هواه بالسبئيين والكلدانيين، وخدمة لمصالحه الخاصة، والملاحظة الثانية، للإعراب عن استهجان أكبر من السابق حيال واقع أن إبليس قد خُوّل باستخدام ظاهرة طبيعية، مثلما هي حال الريح الشديدة أو الإعصار لتقويض البيت، والأسوأ من ذلك، وما لا يمكن تفسيره أيضاً، استخدامه نار الرب بالذات لإحراق الأغنام والغلمان الذين يرعونها. وبناء على ذلك، إما أن يكون إبليس أكبر قدرة مما نظنه، أو أننا أمام وضع بالغ الخطورة يتمثل في تواطؤ تكتيكي، ولكنه مضمر، بين الجانب الشرير والجانب الخيّر في العالم.

سقط الحداد مثل لوحة قبر ثقيلة على أرض عوص، فالموتى جميعهم ولدوا في المدينة التي حُكم عليها الآن، ولا نعرف إلى متى، ببؤس شامل لم يكن الأشد فقراً فيه في الحقيقة هو أيوب. بعد أيام قليلة من تلك الحوادث المشؤومة، عُقد في السماء اجتماع آخر للكائنات السماوية وكان إبليس أيضاً بين الحاضرين. فقال له السيد، من أين جئت أنت، فأجابه الشيطان، إنني آتٍ من

جولة أخرى في الدنيا وقد جبتها كلها، وسأله السيد، هل دققت النظر في عبدي أيوب، لأنه ليس مثله في الأرض، فهو رجل مستقيم ونزيه، يخشى الرب وينأى بنفسه عن الشر، ويتمسك على الدوام بفضائله، على الرغم من أنك هيجتني عليه كي أبتليه بلا سبب يستحق عليه المحنة، فأجاب الشيطان، لقد فعلتُ ذلك بالاتفاق معك، وكون أيوب يستحق ذلك أو لا يستحقه ليس شأني، كما أن فكرة تعذيبه لم تكن مني، ثم واصل قائلاً، الإنسان قادر على إعطاء كل ما يملكه بما في ذلك جلده لينجو بنفسه، ولكن حاول أن ترفع يدك ضده، اجعله يعاني عللاً في عظمه وبدنه وسترى إن كان لا يسبك ويجدف عليك وجهاً لوجه. فقال الرب، إنه تحت تصرفك، على ألا تنتزع منه الحياة، هذا يكفيني، أجابه الشيطان وذهب من هناك إلى حيث أيوب، وفي وقت أقل مما تتطلبه رواية ذلك، أصاب أيوب بقروح مرعبة غطته من باطن قدميه حتى رأسه. كان لا بد من رؤية الرجل التعيس جالساً وسط الرماد في الطريق وهو يحك ساقيه بقطعة آجر كما لو أنه آخر الأخيرين. أما امرأة أيوب التي لم نسمع منها حتى الآن كلمة واحدة، ولو للبكاء على موت أبنائها العشرة، فقد فكرت في أن الوقت قد حان للتفريج عن نفسها، وسألت زوجها، أنتَ لا تزال متمسكاً باستقامتك، ولو أنني كنت مكانك لجدفتُ على الرب حتى لو جاءني الموت عند ذلك، فردّ عليها أيوب، إنك

تتكلمين كجاهلة، فإذا كنا نتقبل تلقي الخير من يدي الرب، فلماذا لا نتقبل الشر، كان هذا هو السؤال، ولكن المرأة أجابت ساخطة، من أجل الشر هنالك الشيطان، أما أن يظهر السيد الآن كمنافس له فهو أمر لم يخطر لذهني من قبل، لا يمكن أن يكون الإله هو من أوصلني إلى هذه الحال، وإنما الشيطان، بالاتفاق مع السيد، قالت له ثم أضافت، لطالما سمعتُ من الأقدمين القول إن نزوات الشيطان تظل عاجزة أمام مشيئة الإله، ولكنني صرت أشك الآن في أن تكون الأمور بهذه البساطة، فمن المؤكد أن الشيطان ليس سوى أداة من أدوات الرب، إنه المكلف بإنجاز الأعمال القذرة التي لا يستطيع الإله توقيعها باسمه. فما كان من أيوب عندئذ، وهو في ذروة الألم، وربما متشجعاً بكلمات امرأته، دون أن يعترف بذلك، كسر حاجز الخوف من الإله الذي يختم شفتيه وصاح، فليهلك اليوم الذي ولدتُ فيه والليل الذي قيل فيه قد حُبل برجل، فليتحول ذلك اليوم إلى ظلمة، لا يوليه الإله من عليائه أي اهتمام ولا يتألق فيه ضوء، وليتملكه الظلام والعتمة، ولتلفه الغيوم وترعبه الكسوفات، فلا يُذكر ذلك اليوم بين أيام السنة، ولا يُحسب بين الشهور، ولتكن عاقراً تلك الليلة فلا يُسمع فيها صوت سعادة، ولتظلم نجوم غسقها، وليكن انتظار بزوغ الضياء فيها دون طائل فلا تنفتح فيها أهداب الفجر لأنها لم تغلق بطن أمي عليّ وتحول دون رؤيتي كل هذا الشقاء، وهكذا

راح يندب أيوب حظه، صفحة بعد صفحة من اللعنات والحسرات، بينما كان ثلاثة من أصدقائه، أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماتي، يقدمون إليه خطابات حول الاستسلام والإذعان بصورة عامة وحول واجب كل مؤمن بالامتثال صاغراً ومطأطئ الرأس لمشيئة السيد، أياً تكن تلك المشيئة. كان قايين في أثناء ذلك قد وجد عملاً آخر، شيئاً ضئيلاً، كالّاف حمير لدى مالك صغير أضطر أن يكرر ألف مرة، أمامه وأمام أقربائه، كيف كان حدث هجوم السبئيين وسرقة الحمير. وكان يفترض أن الملاكين لا يزالان هناك يجمعان معلومات عن نكبة أيوب لنقلها إلى السيد الذي لابد أن يكون بانتظارها بفارغ الصبر، ولكن خلافاً لتوقعاته، كان الملاكان هما من ظهرا له لتهنئته بالنجاة من قسوة البداة السبئيين، إنها معجزة، قالا له. فشكرهما قايين مثلما يتطلب الواجب، ولكن امتياز نجاته لا يمكن أن ينسيه إساءات الإله الآخذة بالتعاظم، فقال للملاكين، أفترضُ أن السيد سيكون الآن سعيداً، فقد كسب الرهان ضد الشيطان، لأن أيوب لم يتنكر له بالرغم من كل ما يعانيه، جميعنا كنا نعرف أنه لن يتنكر، والسيد أيضاً كما أتصور، السيد يعرف ذلك قبل الجميع، أيعني ذلك أنه راهن لأنه كان متأكداً من أنه سيكسب الرهان، أجل، بطريقة ما، هذا يعني أن كل شيء ظل مثلما كان، فلم يُعرف الآن إلا ما كان معروفاً من قبل، وهو كذلك، إذا كان الأمر كذلك،

ففسرا لي سبب جذام أيوب والقروح المتقيحة التي تغطيه، وماذا عن أبنائه، وعن إفلاسه، سيجد السيد طريقة لمكافأته، فسأل قايين، هل سيعيد أبناءه العشرة إلى الحياة، ويعيد بناء الجدران، ويُرجع الماشية التي لم تمت، هذا ما لا نعرفه، وماذا سيفعل السيد بالشيطان الذي يبدو أنه أساء استخدام التفويض الممنوح له، ربما لن يفعل شيئاً، فسأل قايين بنبرة مستهجنة، كيف لن يفعل شيئاً، وحتى لو كان العبيد لا يُحسبون في الإحصاءات، فإن أناساً آخرين كثيرين قد ماتوا، وأسمعُ الآن أن السيد قد لا يفعل شيئاً، لقد كانت الأمور في السماء على هذا النحو دائماً، ولسنا المذنبين في ذلك، أجل، فعندما يكون الشيطان حاضراً في اجتماع للكائنات السماوية، فإن هناك أمراً لا يمكن للأخلاق البسيطة تفهمه. توقفت المحادثة عند هذه النقطة، فانصرف الملاكان وبدأ قايين يفكر في أنه عليه أن يجد لحياته طريقاً أكثر احتراماً، لن أظل هنا أعتني بالحمير طوال ما تبقى لي من الحياة، هكذا فكر. وقد كانت النية جديرة بالتقدير والامتداح، ولكن البدائل معدومة، اللهم سوى عودته إلى أرض نود وشغله مكانه في قصر ليليث وفراشها. وهناك سيسمن، وسيصنع لها ابنين أو ثلاثة أبناء آخرين، ويمكن له أيضاً، وهذه فكرة خطرت له للتو، أن يذهب لرؤية كيف هما أبواه، إن كانا لا يزالان على قيد الحياة، وهل هما على ما يرام. سوف يتنكر كيلا يتعرفا إليه، ولكن لا يمكن

لأحد أن ينتزع منه هذه السعادة، سعادة، تساءل بينه وبين نفسه، قايين لن يعرف السعادة أبداً، فقايين قتل أخاه، قايين ولد كي يرى ما لا يمكن وصفه، قايين هو من يعادي الرب.

كان بحاجة إلى حمار يحمله. لقد فكر في إحدى اللحظات الأولى أن يتخلى عن مسألة الحمير هذه والذهاب ماشياً، ولكن إذا ما تأخر انتقاله من حاضر إلى آخر، فلن يكون أمامه سوى التيه والهيام على وجهه في هذه القفار مسترشداً بالنجوم حين يكون الوقت ليلاً، وأن ينتظر عودتها للظهور حين يكون الوقت نهاراً. أضف إلى ذلك أنه لن يجد من يتبادل معه الكلام. فالحمار، خلافاً للتفكير الشائع عموماً، محدّث جيد، ويكفي التمعن في مختلف الطرق التي ينهق بها ويزفر، وفي تنوع حركات أذنيه، ليس جميع الأشخاص الذين يركبون حميراً يعرفون لغتها، ومن هنا تتكرر بعض المواقف التي يبدو ظاهرياً أنه لا تفسير لها مثل حرن الدابة وتوقفها دون حراك في منتصف الطريق، وعدم زحزحتها من هناك ولو قتلوها ضرباً بالعصي. فيقال عندئذ إن الجحش شديد العناد كالحمار، بينما الذي يجري في نهاية المطاف هو مشكلة في التواصل، مثلما يحدث بكثرة بين بني البشر. لم تدم فكرة الذهاب ماشياً على قدميه وقتاً طويلاً في ذهن قايين. إنه بحاجة إلى حمار، حتى لو اضطر إلى سرقته، ولكننا نحن، من رحنا نتعرف إليه شيئاً فشيئاً بصورة أفضل، نعرفُ أنه

لن يفعل ذلك. فعلى الرغم من أنه قاتل، إلا أن قايين شخص نزيه في جوهره، وأيام المجون التي عاشها في معاشرة ليليث، والتي تستحق اللوم من وجهة نظر الأحكام البرجوازية المسبقة، لم تكن كافية لإفساد حس أخلاقي نقي بالوجود، ولننظر في المواجهة الشجاعة التي ما فتئ يخوضها مع الرب، وإن يكن السيد، وهذا أمر لابد من قوله، لم ينتبه إلى ذلك بعد، اللهم إلا إذا تذكر الجدل الذي دار بينهما أمام جثة هابيل التي كانت لا تزال دافئة. وفي ذهاب ومجيء الأفكار هذا، خطرت لقايين الفكرة المنقذة بشراء أحد الحمير التي تحت رعايته، وذلك بأن يتلقى نصف أجره نقداً ويترك النصف الآخر لرب عمله كدفعة مسبقة. وستكون العقبة في بطء عملية التصفية، ولكن قايين غير مستعجل، فليس هناك في العالم من ينتظره، بمن في ذلك ليليث، على الرغم من كل تقلبات جسدها العصبي والجزع في الفراش. لم يكن مالك الحمير شخصاً سيئاً، فقد أجرى الحسابات على طريقته، وبحيث يفيد مصالح قايين الذي لم تخطر لباله تلك الأمور، ولاسيما أن علاقته بالحساب لم تكن جيدة قطّ. ولم يحتج الأمر لأسابيع كثيرة كي يجد قايين نفسه، أخيراً، وقد صار يملك حماره. ويمكن له الذهاب متى يشاء. وفي عشية يوم مغادرته قرر أن يذهب ليرى ما آلت إليه حال رب عمله السابق أيوب، وإن كانت قروحه قد شفيت، ولكنه رآه جالساً على الأرض، أمام باب بيته، يحك

جراح ساقيه بقطعة آجر، مثلما كان في يوم سقوط اللعنة عليه، ويا لهولها من لعنة، إنها من أسوأ اللعنات، فقد هجره الرب وتركه بين يدي الشيطان. لـلسفينة الكبرى عاصفة كبرى، هذا ما يقوله الشعب، وقصة أيوب تثبت ذلك إلى حد التخمة. وبحفاظ على التكتم، مثلما يتناسب مع قاطع طريق، لم يقترب قايين ليتمنى له التحسن في صحته، ففي حسابات موجزة، لم يتوصل رب العمل ذاك وعامله هذا إلى التعارف، وهذا هو السيئ في انقسام الطبقات، فكل شخص في مكانه، وحيث ولد إن كان ذلك ممكناً، وهكذا لا يبقى ثمة طريقة لنشوء صداقة بين من ينتمون إلى عوالم مختلفة. وهكذا رجع قايين إلى موقع عمله ممتطياً متن الحمار الذي صار ملكاً له بحق، كي يهيئ أمتعته. وبالمقارنة مع الحمار الذي بقي في إسطبلات قصر ليليث، ذلك النوع المتميز من الحمير الذي أيقظ جشع البيطار في أريحا، فإن الركوبة الجديدة هي أقرب إلى روثينانتي[1] متقاعد منها إلى دابة جديرة بالاستعراض. ومع ذلك، فإنه لا مناص حتى لأقل الأحكام المستقلة تطلباً من الاعتراف أنه حمار متين القوائم، وإن كانت نحيلة وغير رشيقة في المشي. وبالإجمال، ولأنه كان يفكر في رب عمله السابق الذي ذهب إليه ليودعه عند الباب، لن يكون قايين في حالة سيئة في اليوم التالي، عندما ينطلق على الطريق منذ الصباح الباكر.

---

[1] – روثينانتي: حصان دون كيخوته الشهير.

12

لم يكن عليه أن يسير كثيراً ليترك الحاضر الحزين في أرض عوص ويجد نفسه محاطاً بجبال تزدهي بالخضرة، وبوديان شهوانية تجري فيها جداول ماء من أصفى وأعذب مياه رأتها عين وتذوقها فم ذات يوم. يمكن لهذا، أجل، أن يكون جنة عدن ذاكرة الحنين، ولاسيما الآن بعد أن انقضت سنوات طويلة وراحت الذكريات الخبيثة تتحلل، بمساعدة الزمن، وتتلاشى إلى هذا الحدّ أو ذاك. ومع ذلك، كان يُلمح في المشهد المبهر شيئاً من الزيف، من التصنع، كما لو أنه مشهد مهيأ عن عمد لهدف من المحال تفسيره إن كان المرء آتياً وهو يمتطي حماراً عادياً ودون دليل متشلين. حاذى قايين صخرة كانت تخفي عنه المشهد منذ مسافة لا بأس بها، ووجد نفسه عند مدخل وادٍ أشجاره أقل، ولكنه لا يقل جاذبية عن الوديان التي رآها سابقاً، حيث يظهر بناء خشبي يبدو، من خلال هيئة مكوناته ولون مواده، شديد الشبه بسفينة، أو بعبارة أدق، أشبه بصندوق عظيم وجوده هناك يثير قدراً كبيراً من الاستغراب، لأن السفن، إن كان سفينة،

تُبنى، من حيث المبدأ، على ضفاف الماء، والصناديق، وخاصة حين تكون بهذا الحجم، ليست بالشيء الذي يمكن وجوده في وادٍ، بانتظار ما هو غير معلوم. يا للأمر المثير للفضول، وقرر قايين الذهاب إلى المصدر الأول، وهو يتمثل في هذه الحالة بالأشخاص الذين يعملون، سواء لاستخدامهم الشخصي أو بتكليف من آخرين، في بناء تلك السفينة اللغز، أو ذلك الصندوق الذي لا يقل تلغيزاً. وجه الحمار نحو الترسانة، وهناك حيا الحاضرين وحاول البدء بمحادثة معهم، إنه مكان جميل، قال، ولكن الجواب، فضلاً عن تأخره، قُدم بأشد الطرق الممكنة اقتضاباً، وتمثل بكلمة نعم تأكيدية صرفة، بلا مبالاة، ودون اهتمام أو التزام. فواصل قايين، من يسافر في هذه الأنحاء، مثلما هي حالتي، ينتظر أن يجد أي شيء باستثناء بناء بحجم هذا الذي تصنعون، ولكن التلميح المتملق بصورة متعمدة، سقط في كيس مثقوب. بدا أن الأشخاص الثمانية الذين يعملون في الورشة، وهم أربعة رجال وأربع نساء، ليسوا مستعدين للتآخي مع الدخيل ولم يفعلوا شيئاً لإخفاء جدار العداء الذي يحتمون به من تدخلاته. فقرر قايين التخلي عن اللف والدوران والهجوم مباشرة، وما هو هذا الذي تصنعونه، أهو سفينة، أم صندوق، أم بيت، سألهم. أكبر الجماعة سناً، وهو رجل طويل القامة، ومربوع مثل شمشون، اكتفى بالقول، ليس بيتاً، فقاطعه قايين،

وليس صندوقاً، لأنه لا وجود لصندوق بلا غطاء، وغطاء هذا الشيء، إن وُجد، لن تكون هناك قوة بشرية قادرة على حمله. لم يجبه الرجل وتململ كمن يريد الانسحاب، لكن قايين أوقفه في اللحظة الأخيرة، إذا لم يكن بيتاً ولا صندوقاً، فلا يمكن له أن يكون إلا سفينة، فقالت أكبر النساء سناً، لا تجبه يا نوح، سوف يغضب السيد منك إذا تكلمت أكثر مما يجب. فوافق الرجل على كلامها بهز رأسه، وقال لقايين، لدينا عمل كثير وحديثك يشغلنا عن العمل، أطلب منك أن تتركنا وتواصل طريقك، وانتهى بنبرة فيها شيء خفيف من التهديد، كما يمكنك أن ترى بعينيك، نحن هنا أربعة رجال أقوياء، أنا وأبنائي، فأجابه قايين، حسن جداً، أرى أن قواعد حسن الضيافة المعروفة في بلاد بين النهرين المحترمة منذ الأزل في أرضنا، قد فقدت كل قيمتها في نظر آل نوح. وفي تلك اللحظة بالذات، ووسط دوي رعد يصم الآذان وما يرافقه من بروق نارية، تجلى السيد. لقد حضر بثياب العمل، دون الألبسة الفاخرة التي يجبر بها على الانصياع الفوري من يرمي إلى إبهارهم دون اللجوء إلى الجدل الإلهي. خرّ أفراد أسرة نوح وبطريركها نفسه ساجدين على الأرض المغطاة بألواح الخشب، بينما نظر السيد مستغرباً إلى قايين، وقال له، ماذا تفعل هنا، لم أرك منذ اليوم الذي قتلتَ فيه أخاك، إنك مخطئ أيها السيد، فقد التقينا، وإن كنتَ لم

تتعرف إليّ، في بيت أبراهام، عند بلوطات ممرا، حين كنتَ على وشك إهلاك سدوم، لقد كان عملاً جيداً، نظيفاً وفعالاً، وكان قبل ذلك كله نهائياً، لا وجود لشيء نهائي في العالم الذي خلقتَ، فأيوب كان يظن أنه بمنجى من النكبات كلها، لكن رهانك مع الشيطان حوّله إلى البؤس وصار بدنه مجرد قرح كبير، وهذا ما رأيته عليه عند مغادرتي أرض عوص، لم يعد كذلك يا قايين، لم يعد كذلك، فقد شفي جلده تماماً والقطعان التي كانت لديه تضاعفت، فصار يملك الآن أربعة عشر ألف رأس من الغنم، وستة آلاف جمل، وألف فدان من البقر، وألف أتان، وكيف حصل على ذلك كله، لقد انحنى أمام سلطتي، اعترف أن سلطتي مطلقة، غير محدودة، وأنني لستُ مضطراً لتقديم حساب أمام أحد، إلا أمام نفسي، ولا أحتاج إلى التوقف عند اعتبارات شخصية، وهذا ما أُخبركَ به الآن، فأنا مزود بضمير بالغ المرونة يتوافق على الدوام مع ما أرغب في فعله، وماذا عن أبناء أيوب الذين ماتوا تحت أنقاض بيتهم، هذا تفصيل صغير لا أوليه كبير اهتمام، سيكون له عشرة أبناء آخرين، سبعة ذكور وثلاث إناث كما في السابق، ليحلوا محل من فقدهم، بالطريقة نفسها التي حلت بها قطعان محل أخرى، أجل، بطريقة القطعان نفسها، فالأبناء ليسوا سوى ذلك: قطعان. كان نوح وأفراد أسرته قد نهضوا عن الأرض وشهدوا بذهول حوار السيد مع

قايين الذي بدا أشبه بحوار صديقين قديمين التقيا بعد فراق طويل. لم تخبرني بعد بما جئت تفعله هنا، قال الإله، لا شيء خاصاً أيها السيد، بل أكثر من ذلك، فأنا لم أجيء وإنما وجدت نفسي هنا، بالطريقة نفسها التي وجدت بها نفسك في سدوم أو في أرض عوص، وكذلك في جبل سيناء، وفي أريحا، وعند برج بابل، وفي أرض نود، وعند تقديم إسحاق قرباناً، لقد ارتحلتَ كثيراً كما أرى، أجل أيها السيد، ولكن ليس بإرادتي، وإنني أتساءل عما إذا لم تكن هذه التنقلات المتواصلة التي تأخذني من حاضر إلى آخر، سواء في الماضي أو المستقبل، ليست من تدبيركَ أيضاً، لا علاقة لي بشيء من هذا، فهي مهارات بدائية تفلت مني، إنها خدع من أجل إدهاش البرجوازية، فالزمن بالنسبة إلي غير موجود، أنت توافق إذاً على أن هناك في الكون قوة أخرى مختلفة وأقوى منكَ، هذا محتمل، فليس من عادتي مناقشة حالات سمو فارغة، ولكن هناك أمراً يجب أن تعرفه، فأنت لن تستطيع الخروج من هذا الوادي، ولا أنصحك بأن تحاول ذلك، فمنذ الآن ستكون مخارج الوادي محروسة، عند كل مخرج سيقف ملاكا كروبيم يحملان سيفي لهب وأوامر بقتل كل من يقترب، مثل الحارس الذي وضعتَه عند باب جنة عدن، كيف تعرف ذلك، أبواي كانا يتحدثان كثيراً عنه. والتفت الإله إلى نوح وسأله، هل أخبرت هذا الرجل عن الهدف من

السفينة، لا يا سيدي، فليسقط لساني من فمي إن كنتُ أكذب، وأفراد أسرتي شهود على ذلك، إنكَ عبد بار، وقد أحسنتُ صنعاً باختيارك، شكراً يا سيدي، وإن كنتَ تسمح لي بالسؤال، ماذا تريدني أن أفعل الآن بهذا الرجل، احمله في السفينة مع أفراد أسرتك، سيكون لديك رجل آخر لصنع أبناء في كنائنكَ، وآمل ألا يضايق ذلك أزواجهن، أعدكَ بأنهم لن يتضايقوا، وأنا أيضاً سأحاول المساهمة بدوري، صحيح أنني عجوز، ولكن ليس إلى حدّ الإشاحة بوجهي عن جسد امرأة جيد. قرر قايين التدخل، وسأل، هل يمكنني أن أعرف ما الذي تتكلمان عنه، فأجاب السيد كمن يكرر خطاباً معداً مسبقاً ومحفوظاً، الأرض فسدت تماماً وامتلأت بالعنف، ولم اعد أرى فيها إلا فساداً، فجميع قاطنيها اتبعوا دروباً خاطئة، شر البشر قد كثر، وكل أفكارهم ورغباتهم تتوجه دوماً نحو الشر وحده، إنني نادم لأني خلقت الإنسان، وبسببه يعاني قلبي المرارة، وقد حانت نهاية البشر جميعاً في نظري، ولأنهم ملؤوا الأرض اضطراباً سوف أُهلكهم مع الأرض، وقد اخترتُك أنتَ يا نوح لتبدأ البشرية الجديدة، وهكذا أمرتُكَ بأن تصنعَ فلكاً من خشبِ جفر وتقسمه إلى مساكن، وتطليه بالقطران من داخل ومن خارج، أمرتُكَ أن يكون طول الفلك ستمئة قدم، وها هي قد تحققت، وأن يكون عرضه مئة قدم وارتفاعه ستين، وفي أعلاه تصنع كوة

ارتفاعها قدمان، وتضع باب الفلك في جانبه، وتبني فيه طابقاً سفلياً، وطابقاً ثانياً وطابقاً ثالثاً، لأنني سأرسل طوفان ماء يغمر كل شيء، ويُهلك جميع الكائنات الحية الموجودة تحت السماء، كل ما على الأرض سيموت، أما أنت يا نوح، فأُقيم عهدي معك، فتدخل في الوقت المناسب إلى الفلك مع بنيك وامرأتك ونساء بنيك، ومن كل نوع من الكائنات الحية تُدخل اثنين إلى الفلك، ذكراً وأنثى، لاستبقائها معك، من كل جنس كائنات حية، سواء من الطير أو من ذوات الأربع وغيرها من البهائم، تأخذ معك اثنين، وعليكَ أيضاً أن تبحث وتخزن مختلف أصناف الطعام التي اعتاد كل منها أن يأكله، وهكذا تتزود بالمؤن لك ولكل البهائم. هكذا كان خطاب السيد. وعندئذ قال قايين، بمثل هذه الأبعاد وهذه الحمولة، لن يستطيع الفلك الطفو، فعندما يبدأ غمر الوادي، لن يكون هناك دافع من الماء قادراً على النهوض به عن الأرض، وستكون النتيجة غرق جميع من هم في الداخل وتتحول وسيلة النجاة إلى مصيدة فئران، حساباتي لا تقول ذلك، صحح له السيد، حساباتك خاطئة، فالسفينة يجب أن تبنى بجانب الماء، وليس في وادٍ محاط بجبال، وعلى مسافة هائلة البعد عن البحر، وعندما ينتهي بناء السفينة تُدفع إلى الماء، أي إلى البحر أو النهر، أما في هذه الحالة، فمن سيتولى رفعها، ربما لستَ تعرف أن السفن تطفو لأن كل جسم مغمور في

سائل يتعرض لحركة دفع عمودية من أسفل إلى أعلى تساوي ثقل السائل المزاح، هذا هو مبدأ أرخميدس، فقال نوح، اسمح لي يا سيدي أن أعبر عما أفكر فيه، تكلم، قال له الإله بضيق واضح، قايين على حق يا سيدي، لأننا إذا ظللنا ننتظر أن يرفعنا الماء فسوف نموت جميعنا غرقاً ولن توجد حينئذ بشرية أخرى. قطب السيد جبينه كي يفكر بصورة أفضل، وقلّب المسألة عدة مرات وانتهى به الأمر إلى التوصل إلى النتيجة نفسها، فكل ذلك العمل من أجل اختراع هذا الوادي لم يكن له وجود من قبل، ما عاد ينفع في شيء الآن. عندئذ قال، هناك حلّ جيد للقضية، حين يصير الفلك جاهزاً سأرسل ملائكتي العاملين كي ينقلوه في الأجواء إلى أقرب شاطئ بحر، فقال نوح، إن وزنه ثقيل جداً يا سيدي، ولن يتمكن الملائكة من نقله، أنت لا تعرف قوة الملائكة، فهم قادرون على حمل جبل بإصبع واحد، وما ينقذني هو أنهم شديدو الانضباط، ولو لم يكونوا كذلك لنظموا انقلاباً وأطاحوا بي، فقال قايين، مثلما فعل الشيطان، أجل، مثل الشيطان، ولكنني وجدت طريقة لإبقاء الشيطان سعيداً، فبين حين وآخر أترك ضحية بين يديه كي يتسلى بها، وهذا يكفيه، مثلما فعلتَ بأيوب الذي لم يتجرأ على التجديف ضدك، ولكنه يحمل في قلبه كل ما في الدنيا من مرارة، وما أدراك أنت بقلب أيوب، لا شيء، ولكنني أعرف كل شيء عن

قلبي وبعض الشيء عن قلبك أيضاً، أجابه قايين، **لا** أظن ذلك، فالآلهة مثل آبار بلا قرار، إن أطللت عليها لن تتمكن حتى من رؤية صورتك، **جميع** الآبار تنتهي إلى الجفاف مع مرور الوقت، ولسوف تحين ساعتك أيضاً. لم يردّ السيد على ذلك، بل نظر بتمعن إلى قايين وقال، العلامة على جبهتك صارت أكبر، إنها تبدو شمساً سوداء فوق أفق عينيك، **برافو**، هتف قايين مصفقاً براحتيه، لم أكن أعرف أنك تتعاطى قرض الشعر، ألم أقل لكَ للتو إنك لا تعرف شيئاً عني. وبهذا التصريح القوي ابتعد الإله، وبتكتم أشد من وصوله، غاص في بُعد آخر.

ومدفوعاً بمناظرة لم يقدم فيها، حسب رأي أي مراقب محايد، دوراً يمكن تصنيفه على أنه لامع، قرر السيد تبديل خططه. فالقضاء على البشرية لم يكن ما يمكن تسميته مهمة مستعجلة، وإفناء دويبة الإنسان يمكن أن ينتظر لقرنين أو ثلاثة أو حتى عشرة قرون، ولكنه ما إن اتخذ هذا القرار، حتى بدأ الإله يشعر بنوع من التنميل في رؤوس أصابعه، وهي علامة جزع شديد. فقرر بالتالي تعبئة جيشه من الملائكة العاملين بفعل مباشر، أي بدل استخدامهم فقط في حمل الفلك إلى البحر مثلما ارتأى، سيرسلهم لمساعدة أسرة نوح المنهوكة التي تمضي، كما يمكن رؤيتها، أقرب إلى الموت منها إلى الحياة في تلك المهمة. وبعد أيام قليلة ظهر الملائكة، في تشكيل من فرق كل فرقة منها

تضم ثلاثة منهم، وبدؤوا العمل فوراً. لم يكن السيد يبالغ عندما قال إن الملائكة يتمتعون بقوة كبيرة، وتكفي رؤية الحال الطبيعية التي يضعون بها ألواحاً خشبية ضخمة تحت آباطهم، كما لو أنها جريدة المساء، ويحملونها عندما يتطلب الأمر من طرف إلى آخر في السفينة، مسافة ستمئة قدم، أو ما يعني، بالمقاسات الحديثة، مئة وخمسين متراً، أي بحجم حاملة طائرات عملياً. والأكثر مفاجأة مع ذلك، كانت الطريقة التي يُدخلون بها المسامير في الخشب. ما كانوا يستخدمون مطارق، بل يضعون المسمار بصورة عمودية ورأسه إلى أسفل، ثم يوجهون ضربة قوية إلى المسمار بقبضة مطبقة، فيدخل الحديد دون أي مقاومة، كما لو أنه لا يدخل في خشب سنديان قاس وإنما في قالب زبد في الصيف. والأكثر إذهالاً هي رؤيتهم كيف يسحجون الألواح، يضعون راحة اليد فوقها ويحركونها إلى أمام وإلى وراء، ودون ظهور أي نوع من النجارة أو أدنى قدر من النشارة، تأخذ سماكة لوح الخشب بالتناقص حتى بلوغ المقاس الدقيق. وفي حال اضطرارهم إلى إحداث ثقب لإدخال مسمار خشبي، فالإصبع السبابة وحدها كافية لإحداثه ببساطة. لقد كانت رؤيتهم يعملون على ذلك النحو مشهداً استعراضياً. ولم يكن مفاجئاً بالتالي تقدم العمل بسرعة لم يكن تصورها ممكناً من قبل، فلم يعد هناك متسع من الوقت ولو لإبداء الإعجاب بالتغيرات التي تحدث.

وخلال تلك المرحلة لم يظهر السيد سوى مرة واحـدة. سـأل نـوح عما إذا كان كل شيء يمضي على مـا يـرام، وأراد أن يعـرف إن كان قايين يساعد الأسرة، وكان الصحيح أنه يساعد يـا سـيدي، والدليل على ذلك أنه نام مع كنتين وهو يستعد للنوم مع الثالثـة. وسأل السيدُ نوحاً أيضاً كيف تمضـي عمليـة اختيـار الحيوانـات التي ستدخل الفلك، فقـال البطريـرك إن قسـماً لا بـأس بـه مـن الحيوانات قد جُمع، وأنه ريثمـا ينتهـي العمـل في بنـاء الفلـك، سيحصل على الحيوانات المتبقيـة. لم يكـن ذلـك صـحيحاً، بـل مجرد جزء صغير من الحقيقـة. فـالواقع أنـه كـان لـديهم بعـض الحيوانات، ومن أكثرها عادية، في بقعة مسورة في الجانب الآخر من الوادي، ولكن عددها ضئيل جداً إذا ما قارناه بالخطـة الـتي أقرها السيد، هذا يعني جميـع الكائنـات الحيـة، ابتـداء بفـرس البحر المكرش وحتى أصغر قملة تافهة، دون نسيان ما هو موجود من هناك فما تحت، بما في ذلك الأجسام الميكروسـكوبية، فهـي أيضاً كائنات. وأناس، بهذا المعنـى الواسـع والسـخي هـي أيضـاً بعض الحيوانات التي يدور الحديث عنها بكثرة في بعض الدوائر الحصرية التي تتعاطى بالشؤون الباطنية، ولكن لـيس هنـاك مـن يستطيع الزعم أنه رآها. ونحن نشير بذلك، علـى سـبيل المثـال، إلى أحـــادي القـــرن، وطـــائر الفينيـــق، والبُـــراق، والســـنطور، والمينوتور، والكيميرا، وكافـة تلـك الأجنـاس الحيوانيـة المتباينـة

التكوين وغير المتجانسة والتي لا مسوغ لها في الوجود سوى أنها أُنتجت على يد السيد في لحظة تهور، وإن تكن قد خُلقت بالطريقة نفسها التي خُلقت بها الجحوش العادية، بين الكثيرة الأخرى التي تسكن الأرض. ولنتصور الفخر والسمعة والاستحقاق الذي سيكتسبه نوح أمام عيني السيد إذا ما تمكن من إقناع أحد تلك البهائم بالدخول إلى الفلك، وأحادي القرن بصورة تفضيلية، على افتراض تمكنه من العثور عليه ذات يوم. ومشكلة أحادي القرن أنه لا تُعرف له أنثى، ولن تكون هناك طريقة بعد ذلك لجعله يتكاثر بالسبل الطبيعية في التلقيح والحبل، وربما لا يكون ذلك، إذا ما فكرنا جيداً، ضرورياً، لأن التواصل البيولوجي ليس كل شيء، ويكفي أن يؤمن الذهن البشري ويعيد الإيمان بذلك الذي يجري التحدث عنه بصورة غامضة. وكان نوح، من أجل إنجاز كافة المهام التي مازال عليه تنفيذها، مثل الجمع الكامل للحيوانات والتزود بالمؤن، يأمل بالاعتماد على تعاون فعال من جانب الملائكة العاملين الذين، وهذا شرف يجب الاعتراف لهم به، مازالوا يعملون بحماسة جديرة بكل إطراء. وكان الملائكة، فيما بينهم، لا يُبدون أي ممانعة في الاعتراف بأن الحياة في السماء هي أشد الأمور التي اختُرعت ضجراً، فكورال الملائكة يشيد طوال الوقت، مع الرياح الأربع، بعظمة السيد، بسخاء السيد، وحتى بجمال السيد. وقد حان الوقت كي يبدأ هؤلاء

وغيرهم من الملائكة بمعرفة سعادات الناس العاديين البسيطة، وأنه ليس من الضروري، من أجل تعظيم أكبر للروح، إضرام النار في سدوم أو النفخ في الأبواق من أجل تقويض أسوار أريحا. وفي هذه الحالة على الأقل، ومن وجهة نظر الملائكة العاملين الخاصة، فإن السعادة على الأرض متفوقة أكثر عما يمكن التوصل إليه في السماء، ولكن يجب ألا يعلم بذلك السيد طبعاً، لأنه شديد الحسد كما هو واضح، وإلا فإنه سيمارس عقوبات قاسية على التفكير دون أن يأخذ الحصانة الملائكية بعين الاعتبار. وبفضل الانسجام السائد بين العاملين في الفلك، استطاع قايين التوصل إلى أن يحظى حماره، عندما تحين اللحظة المناسبة، بالدخول من بوابة الحصان، أو بعبارة أوضح، كمسافر سريّ، لينجو بذلك من الغرق العام. كما أنه توصل بفضل تلك العلاقة الحميمة إلى مشاطرة الملائكة ببعض الشكوك والحيرة. فقد أقام مع اثنين منهم علاقات يمكن لها على المستوى الإنساني أن تُصنف بسهولة على أنها رفاقية وودية، وقد سألهما قايين إن كانا يفكران حقاً في أنه إذا ما جرى إهلاك هذه البشرية، لن تنتهي من ستحل محلها إلى الوقوع في الأخطاء نفسها، والغوايات نفسها، وفي المزالق والجرائم نفسها، فكان جوابهما، نحن لسنا بكل بساطة سوى ملائكة، ولا نعرف إلا قليلاً عن هذا اللغز غير القابل للحل الذي تسمونه الطبيعة البشرية،

ولكننا لا نرى، ولنتكلم بصراحة، كيف يمكن للتجربة الثانية أن تكون مُرضية في الوقت الذي انتهت فيه التجربة الأولى بهذه السلسلة من التعاسات التي نراها أمام أعيننا، ورأينا الصريح كملائكة، باختصار، وبالنظر إلى الأدلة الماثلة، هو أن الكائنات البشرية لا تستحق الحياة، فسألهما قايين حائراً، هل تعتقدون حقاً أن البشر لا يستحقون العيش، ليس هذا هو ما قلناه، فما قلناه، ونكرره، هو أن الكائنات البشرية، وبرؤيتنا كيف كان سلوكها على امتداد الأزمنة المعروفة، لا تستحق ـــ بالرغم من جوانبها السوداء، وهي كثيرة ـ الحياة بكل ما فيها من جمال وعظمة وروعة، أجابه أحد الملاكين، هذا يعني أن قول شيء لا يعني الشيء الآخر، أضاف الملاك الثاني، إذا لم يكن الشيء نفسه، فإنه نفسه تقريباً، أصر قايين، قد يكون، ولكن الفرق يكمن في «تقريباً» تلك، وهو فرق هائل، فقال قايين، على حدّ علمي، نحن لم نتساءل قطّ إن كنا نستحق الحياة أم لا، لو أنكم فكرتم في ذلك، فربما ما كنتم ستجدون أنفسكم على وشك الزوال عن وجه الأرض، ليس هناك ما يستحق البكاء، لأن الخسارة لن تكون عظيمة، أجاب قايين مانحاً للصوت رنة تشاؤم مكدر تولدت وتشكلت خلال رحلات متوالية إلى أهوال الماضي والمستقبل وأضاف، فلو أن الأطفال الذين ماتوا حرقاً في سدوم لم يولدوا لما اضطروا إلى إطلاق تلك الصرخات التي سمعتها أنا حين

كان الكبريت والنار يُصبان على الرؤوس البريئة، لقد كان الذنب ذنب الآباء، قال أحد الملاكين، لا وجود مسوغ لجعل الأبناء يتألمون بسببهم، الخطأ يكمن في الاعتقاد في أن الذنوب لا تُفهم بالطريقة نفسها من قبل الإله ومن قبل البشر، قال الملاك الآخر، في حالة سدوم كان هناك مذنب، وهو إله متسرع بصورة عبثية ولا يريد إضاعة وقته بفصل من يستحقون العقاب، حسب رأيه، لأنهم يمارسون الشر، أضف إلى ذلك، من أين ولدت أيها الملاكان فكرة الإله الغريبة تلك، بأنه عليه، لمجرد أنه إله، أن يتحكم بالحياة الحميمة للمؤمنين به، فيضع لها قواعد ومحظورات وتحريمات وتلفيقات أخرى من العيار نفسه، سأل قايين، هذا ما لا نعرفه، قال أحد الملاكين، ما يقال لنا عن هذه الأمور يكاد يكون لا شيء عملياً، وإذا تكلمنا بصراحة، فإننا لا ننفع إلا في الأعمال الشاقة، أضاف الآخر بلهجة شاكية، وأضاف، عندما يحين موعد حمل السفينة ونقلها إلى البحر، يمكنك أن تراهن على أنك لن ترى هنا أحداً من ملائكة السيرافيم أو الكروبيم، ولا من رؤساء الملائكة، لا يفاجئني ذلك، بدأ قايين القول، ولكن جملته ظلت معلقة في الهواء، بينما كان نوع من الريح يصفع أذنيه ووجد نفسه فجأة داخل خيمة. كان هناك رجل يضطجع عارياً، وذلك الرجل هو نوح الذي أغرقه السكر في أعمق نوم. وكان هناك رجل آخر يقوم بممارسة جسدية

معه، وهذا الرجل الآخر هو حام، ابنه الأصغر، وهو بدوره أبو كنعان. لقد رأى حام أباه عارياً، وهذه طريقة مضمرة، ومتكتمة إلى هذا الحد أو ذاك، لوصف العمل غير اللائق والمستنكر الذي كان يحدث في الخيمة. والأدهى أن الابن الذي ارتكب الخطيئة قد ذهب بعد ذلك ليروي كل شيء لأخويه سام ويافث اللذين كانا خارج الخيمة، لكن هذين الأخوين المشفقين أخذا رداء ورفعاه عالياً وتقدما مديرين ظهريهما لأبيهما، بحيث لا يريانه عارياً. وعندما سيستيقظ نوح ويعلم ما فعله به ابنة الصغير حام، سيقول مسقطاً على ذريته اللعنات التي ستصيب الشعب الكنعاني بأسره، فليكن ملعوناً كنعان، وليكن عبد العبيد لأخويه، فليبارك السيد إلهي أخويه وليكن كنعان عبداً لهم، وليجعل الرب يافث يكبر ويتكاثر نسله مع نسل سام ويكون نسل كنعان عبيداً لهم. لم يعد قايين هناك في أثناء ذلك، فهبة الريح السريعة نفسها اقتادته إلى باب الفلك في اللحظة نفسها التي كان فيها نوح وابنه حام يقتربان حاملين الخبر السعيد، سننطلق غداً، قالا، فالحيوانات جميعها صارت في الفلك، والأطعمة قد خزّنت، وصار بإمكاننا رفع المرساة.

13

لم ير الإله نقل السفينة إلى البحر. فقد كان مشغولاً بتفحص أجهزة النظام المائي في الكوكب، يقوم بالتأكد من حالة الصمامات، وبشد بعض العزقات غير المشدودة التي تقطر ماء في أمكنة لا يجب حدوث ذلك فيها، ويجرب مختلف شبكات التوزيع المحلية، ويراقب الضغط في أجهزة قياس ضغط الماء، إضافة إلى عدد لا حصر له من المهمات الكبيرة والصغيرة، وكل واحدة منها أشد أهمية من سابقتها، وليس هناك أحد سواه، باعتباره خالق ومهندس ومدير الآليات الكونية، في ظروف تؤهله لإنجاز تلك المهمة وتأكيدها بـ (ok) مقدسة. فالحفلة لآخرين، أما هو فله العمل. وفي مثل هذه الساعات يشعر أنه أقل ألوهية من كونه معلماً أو رئيس ورشة على الملائكة العمال الذين يقف منهم الآن، في هذه اللحظة الدقيقة بالذات، مئة وخمسون في الجانب الأيمن من الفلك، ومئة وخمسون آخرون في الجانب الأيسر، وجميعهم بملابس العمل ناصعة البياض، ينتظرون الأمر برفع المركب الهائل، ولن نقول إن ذلك سيحدث بصوت واحد، لأنه لن يُسمع أي صوت، فالعملية برمتها

عملية ذهنية، كما لو أن رجلاً واحداً يفكر فيها بدماغه الوحيد وإرادته الوحيدة. في لحظة كان الفلك على الأرض، وفي اللحظة الثانية ارتفع بقدر طول أذرع الملائكة العمال، كما في تمرين رياضي لرفع الأثقال. وكان نوح وأفراد أسرته ينظرون بحماسة، ونصف أجسادهم خارج النافذة، ليستمتعوا بصورة أفضل بالمشهد، مع المجازفة بأن بعضهم قد يسقط من هناك كما فكر قابيين. دفعة أخرى ووجد الفلك نفسه في منطقة أعلى من الهواء. فكان أن أطلق نوح صرخة حينئذ، أحادي القرن، أحادي القرن. وبالفعل، على امتداد الأرض تحت الفلك كان يركض ذلك الحيوان الفريد في مملكة الحيوان، بجسده الحلزوني، وهو يلمع بالكامل ببياض مبهر، كما لو أنه ملاك، ذلك الحصان الخرافي الذي طالما كان وجوده موضع شك، وها هو الآن هناك، في متناول اليد تقريباً، يكفي طلب إنزال الفلك وفتح الباب واجتذابه بمكعب من السكر، فهذا هو أكثر ما تفضله فصيلة الخيول، ويكاد يكون سبب ضياعها. وفجأة، اختفى أحادي القرن مثلما ظهر. وذهبت أدراج الهواء صرخات قابيين، انزلوا، انزلوا. فقد كانت مناورة الهبوط معقدة لوجستياً، ثم لماذا محاولة ذلك مادام الحيوان قد تلاشى، ومن يدري في أي أرض يمضي هو في تلك اللحظات. وفي أثناء ذلك، وبسرعة أكبر من سرعة منطاد ربلين هيندنبرغ، كان الفلك يمخر الفضاء باتجاه البحر، حيث حط حين صار الغاطس مناسباً. وقد

أدى هبوطه إلى موجة هائلة، إلى تسونامي حقيقي، وصل حتى الشواطئ محطماً مراكب الصيادين وأكواخهم، ومُغرقاً عدداً منهم، ومسبباً الخراب لفنون صيد السمك، كإنذار بما هو آت. فلم يؤدِ ذلك إلى تحول السيد عن رأيه، فمع أنه يمكن لحساباته أن تكون خاطئة، إلا أنه مازال يتمتع بمنافع الشك في ظل عدم إنجاز التجربة الحقيقية. وفي داخل الفلك، كانت أسرة نوح تحمد الرب، ومن أجل الاحتفال بنجاح العملية والإعراب عن شكرها، ضحت بخروف للسيد الذي ابتهج بالقربان كما هو منطقي، واستناداً إلى السوابق المعروفة. إنه محق، فقد كان نوح خياراً ناجحاً كأب للبشرية الجديدة، ولأنه الشخص الوحيد العادل والنزيه في تلك الحقبة، فسوف يصلح أخطاء الماضي ويطرد الظلم من الأرض. والملائكة، أين هم الملائكة العمال، تساءل قايين فجأة. لم يكونوا موجودين. فبإنجاز ما كلفهم به السيد بصورة متقنة وتامة، قام أولئك العمال المجدون، بالبساطة التي تميزهم والتي قدموا لنا عنها أدلة غير قليلة منذ اليوم الأول الذي عرفناهم فيه، قاموا بالانصراف دون أن ينتظروا توزيع الميداليات. لم يكن للفلك، ومن المناسب التذكير بذلك، صارٍ ولا شراع، ولم يكن يعمل بمحرك، ولا يمكن تعبئته بنابض، أما جعله يبحر بمجاديف فأمر لا يمكن التفكير فيه حرفياً، ولن تكون كذلك قوى جميع الملائكة المتوافرين في السماء كافية لتحريكه بتلك الوسيلة. وبالتالي سوف يمضي هائماً على

وجهه مع التيارات، وستدفعه الرياح التي تضرب كرشه، وهذا يعني أن المناورات البحرية ستكون في أدنى الحدود، وستكون الرحلة بالتالي راحة مديدة، باستثناء مناسبات النشاط الغرامي التي لن تكون قليلة ولا مقتضبة بالنسبة لمشاركة قايين فيها، ومن خلال ما استطعنا ملاحظته، ستكون مثالية تماماً. ولتخبر عن ذلك كنائن نوح اللاتي غادرن في منتصف الليل، وفي مرات غير قليلة، الفراش الذي يرقدن فيه مع أزواجهن ليذهبن ويتغطين ليس بالدثار الذي يغطي قايين وحسب، وإنما كذلك بجسده الفتي والمجرب.

وبعد مرور سبعة أيام، وهو رقم قبالي بامتياز، انفتحت أخيراً بوابات السماء. بدأ المطر يهطل على الأرض دون توقف طوال أربعين يوماً وأربعين ليلة. في البدء لم يُلحظ فرق تأثير الشلالات التي تصب بصورة متواصلة من السماء بدوي يبعث على الصمم. وقد كان ذلك منطقياً، فقوة الجاذبية توجه السيول نحو البحر، وهناك كانت تبدو، للوهلة الأولى، أنها تختفي، ولكن لم يمض وقت طويل إلا وانشقت ينابيع المحيط بدورها وبدأ الماء يصعد إلى السطح في اندفاعات وتدفقات بحجم الجبال التي صارت تظهر وتختفي مختلطة بامتدادات البحر. ووسط ذلك الاضطراب المائي المستعد لابتلاع كل شيء، كان المركب يصمد متأرجحاً من جانب إلى آخر مثل قطعة فلين، ثم يستوي في اللحظة الأخيرة حين يكون البحر على وشك ابتلاعه. وبعد مئة وخمسين يوماً، وبعد أن

انسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، بدأ الماء ينخفض ببطء بعد أن غطى الأرض كلها أعلى من أكثر الجبال ارتفاعاً. وحدث في تلك الأيام أن إحدى كنائن نوح، زوجة حام، قد ماتت في حادث. فخلافاً لما قيل سابقاً أو لما أشعنا فهمه، كانت هناك حاجة كبيرة للأيدي العاملة في الفلك، ليس لبحارة، وهذا صحيح، ولكن الحاجة كانت ماسة إلى عمال تنظيفات. فمئات الحيوانات، كيلا نقول آلافاً، كثير منها من الحجم الكبير، كانت تملأ العنابر حتى السقف بكل أنواع الخراء والبول التي تمنح رؤيتها المجد. وتنظيف ذلك بغسل أطنان من البراز في كل يوم شكل محنة قاسية للنساء الأربع، وهي محنة جسدية في المقام الأول، فكانت المسكينات يخرجن من هناك خائرات القوى، ولكنها محنة حسية أيضاً، وسط نتانة براز وبول لا تطاق وتنفذ من الجلد نفسه. وفي أحد أيام العواصف المنفلتة تلك، بينما الفلك يهتز مع العاصفة والحيوانات يرتطم بعضها بالبعض، انزلقت امرأة حام على الأرضية الدنسة، وانتهت تحت قائمة فيل. وقد ألقوا بها إلى البحر بالحال التي كانت عليها، دامية ومتسخة بالبراز، مجرد فضلة بشرية بائسة بلا تشريف ولا وقار. لماذا لا تنظفوها أولاً، سألهم قايين، فردّ عليه نوح، ستجد ماء كثيراً لتغتسل. منذ تلك اللحظة وحتى نهاية القصة سيكرهه قايين حتى الموت. يقال إنه ليس هناك نتيجة بلا سبب ولا سبب بلا نتيجة،

ويُفهم من ذلك أن العلاقات بين شيء وآخر يجب أن تكـون، في كل لحظة، ليس الظاهرة وحسب، وإنما أن تكون قابلة للفهم بكل مظاهرها، سواء الظاهرة منها أو الخفيـة. ولسـنا نجـازف هنـا في التلميح إلى أنه يجب أن يضاف إلى هذه اللوحة موقف امرأة نوح. فقد تكون قد فكرت، بكل بساطة، أنه بفقدان امرأة حام، لا بـد لأخرى من أن تحـل محلـها، لـيس لاحتضـان الأرمـل في ليـالي توحده الآن، وإنما لاستعادة الانسجام الذي ساد من قبل بين نساء الأسرة الثلاث الشابات والضيف قايين، أو ما يمكن قوله بكلمات أوضح، وأكثر مباشرة، إن كان قد وجد ثلاث نساء تحت تصرفه من قبل، فليس هناك من سـبب يحـول دون مواصـلته ذلـك. ولم تكن تعلم، ولا بإمكانها أن تعلم، أنه كانت تدور في رأس الرجـل أفكار تحوّل هذه المسألة إلى شيء ثانوي بالمطلق. وعلى كل حال، وبما أن أحد الأمـرين لا يتعـارض مـع الآخـر، فقـد أخـذ قـايين تلميحاتها بتعاطف، **هـنا** حيث تراني، وعلى الرغم مـن السـن، وهي ليست سن الشباب الأول، وعلى الـرغم مـن إنجـابي ثلاثـة أبناء، إلا أنني مازلت أشعر أنـني شـهية، فمـاذا تـرى أنـت يـا قايين، سألته المرأة. كان المطر قد توقف منذ وقت طويل، وصارت كتلة الماء الضـخمة تتسـلى الآن بترنـيخ أجسـاد المـوتى وتـدفعها بعذوبة، باهتزازها الأبدي، إلى أفواه الأسماك. كان قايين يطل من النافذة ليرى البحر الذي يلمع تحت ضوء القمر، وكـان قـد فكـر

قليلاً في ليليث وابنه إينوك، وقد ماتا كلاهما، ولكنه كان يفكر ساهياً، كما لو أن ذلك الأمر لا يهمه كثيراً، وحينئذ سَمعَ ذلك الصوت الهامس بجانبه، **هنا** حيث تراني... ومن هناك ذهبا معاً، هو وهي، إلى الحجيرة التي اعتاد قايين النوم فيها، لم ينتظرا إلى أن يتغيب نوح عن الدنيا، وهو الذي كان ينام مستسلماً بين أحضان إله النوم مورفيوس، وعندما انتهيا لم يجد الرجل مفراً من الاعتراف بأن المرأة محقة في الحكم الذي تحدثت به عن نفسها، فهي مازالت هناك لتغسل وتستمر، ولتُثبت في بعض اللحظات أنها تمتلك خبرة أكروباتية لم تتوصل إلى بلوغها المرأتين الأخريين، أكان ذلك بسبب افتقارهما إلى الموهبة الطبيعية، أو التثبيط الذي يتسبب به السلوك التقليدي لزوجيهما. وبما أننا نتحدث عن الأزواج، فلنقل إن حام هو الشخص الثاني الذي اختفى. كان قد صعد إلى سطح الفلك من أجل تثبيت بعض ألواح الخشب التي تطقطق مع اهتزاز الفلك بصورة تمنعه من النوم، وفي تلك اللحظة اقترب أحدهم منه، **هل** لك أن تساعدني، سأله حام، فكان الردّ، نعم، ودفعه إلى البحر، بدا السقوط عن ارتفاع خمسة عشر متراً لانهائياً، ولكنه انتهى أخيراً. أبدى نوح السخط والغضب، وقال إنه بعد كل ذلك الوقت الطويل من ممارسة الإبحار لا يمكن إلا لإهمال لا يغتفر في العمل أن يفسر ما حدث، وطالبهم، افتحوا عيونكم جيداً، انظروا أين تضعون أقدامكم، ثم

تابع قائلاً، لقد فقدنا زوجين، وهذا يعني أنه علينا أن نتلاقح أكثر كثيراً إذا ما أردنا لمشيئة السيد أن تتحقق في أن نكون آباء وأمهات البشرية الجديدة. قطع كلامه للحظات، ثم توجه إلى كِنّتيه المتبقيتين وسألهما، هل بينكما من هي حبلى. فأجابت إحداهما بنعم، إنها حبلى، أما الثانية فليست متأكدة من ذلك بعد، ولكنها قد تكون حبلى، ومن هو الأب، أظن أنه قايين، قالت امرأة يافث، وأنا أيضاً، قالت امرأة سام، غير معقول، قال نوح، إذا كان زوجاكما يفتقران إلى الطاقة التناسلية، فمن الأفضل أن تناما مع قايين فقط، وأنهى قائلاً، فهذا، من جهة أخرى، ما هو مقدر من قبل. ابتسمت النساء في أعماقهن، بمن فيهن امرأة نوح نفسها، وقد كنّ يعرفن السبب. أما الرجلان فلم يَرُق لهما ذلك التأنيب العلني، ولكنهما تعهدا، إن سمح لهما، بأن يكونا أكثر اجتهاداً في المستقبل. من المثير للفضول أن الأشخاص يتكلمون بكل تلك الخفة عن المستقبل، كما لو أنه في أيديهم، وكما لو أن في قدرتهم تقريبه أو إبعاده بما يتفق مع تناسب وضرورات كل لحظة. فيافث على سبيل المثال، يرى المستقبل كمتوالية من المضاجعات الجيدة، إنجاب ابن كل عام، وتوائم عدة مرات، ونظرة السيد الراضية فوق رأسه، أغنام كثيرة، وفدادين بقر كثيرة، وباختصار، السعادة. لم يكن المسكين يعرف أن نهايته صارت قريبة، فسوف تسقطه حركة شقلبة بساقين غريبتين

ليهوي من علٍ دون سترة نجاة، وسيتخبط بذراعي يأسه غير المجدي حتى الاحتضار وهو يطلق الصرخات، بينما الفلك يمضي مبتعداً بمهابة للقاء بقدره. وبفقدان ملاح آخر، أحس نوح بجزع لا يوصف، فقد تعرض تحقيق خطة السيد المنشودة لمجازفة خطيرة، وبالنظر إلى ذلك الوضع، كان لا بد من مضاعفة الوقت اللازم لإعادة إعمار الأرض بالناس أو حتى زيادته إلى ثلاثة أضعاف. وفي كل مرة كانت الحاجة تشتد إلى مساعدة قايين، ولهذا اختار نوح، حيث إن الآخر يبدو غير حازم أمره، وجوب التحدث إليه من رجل إلى رجل، فقال له، فلنتوقف عن اللف والدوران وأنصاف الكلام، يجب عليك أن تنهمك في العمل فوراً، فمنذ اليوم سيكون الأمر متى تشاء وكيفما تشاء، فهذه المخاوف تكاد تقتلني، ولا يمكن لي أن أقدم مساعدة تذكر حالياً، فسأله قايين، ما الذي تعنيه بمتى أشاء وكيفما أشاء، فأجابه نوح، أجل، ومع من تشاء، بمن في ذلك امرأتك، أراد قايين أن يعرف، أُصر على أن تفعل ذلك، فامرأتي لي، وأستطيع أن أتصرف بها مثلما أشاء، ولاسيما إذا كان الأمر يتعلق بعمل جيد، ألح قايين، عمل خير، عمل للسيد، أكد نوح بالوقار المناسب، فقال قايين، بما أن الأمر كذلك، فلنبدأ فوراً، مُرها أن تأتي معي إلى حجرتي حيث أنام ولا أريد أن يزعجنا أحد مهما حدث ومهما سُمع، آمين. سيكون هناك من يظنون أن قايين الماكر كان يتسلى مستمتعاً بذلك

الوضع، يلعب لعبة القط والفأر مع رفاقه الأبرياء في الرحلة البحرية الذين بدأ، مثلما ارتاب القارئ، بتصفيتهم واحداً فواحداً. ولكن من يظن ذلك مخطئ. فقد سوى قايين غضبه ضد السيد، كما لو أنه أسير بين أذرع إخطبوط، وضحاياه هؤلاء الآن، مثلما كان هابيل في الماضي، محاولات أخرى لقتل الإله. الضحية التالية ستكون امرأة نوح نفسها التي ستدفع حياتها، دون أن تستحق ذلك، ثمناً لساعات المتعة التي قضتها بين ذراعي قاتلها المقبل بمباركة زوجها ورضاه، إلى ذلك الحد وصل تراخي عادات تلك البشرية التي نشهد آخر أيامها. وبعد تكرار عدة تجاوزات إيروتيكية هذيانية، وإن يكن بشيء ضئيل من التنويع المختلف، دور البطولة الرئيسي فيها لعبته المرأة وعبرت عنه، كالعادة، بهمهمات وتأوهات، وبعد ذلك بصرخات منفلتة، اقتادها قايين من ذراعها حتى النافذة للاستمتاع ببرودة الليل، وهناك مدّ يديه بين فخذيها اللذين مازالا يرتعشان متراخيين من اللذة، وألقى بها إلى البحر. لم يبق الآن من الأشخاص الثمانية الذين كانوا يؤلفون أسرة نوح سوى البطريرك نفسه، وابنه سام مع امرأته وأرملة يافث. مازال بإمكان امرأتين أن تفعلا الكثير، هذا ما فكر فيه نوح بتفاؤله الدائم وثقته العمياء بالسيد. ولم يتوقف مع ذلك عن إبداء الاستغراب حيال اختفاء زوجته الذي يمكن تفسيره، وقد أعرب عن ذلك لقايين، لقد كانت تحت رعايتك بالكامل، ولا أفهم

كيف أمكن لتلك النكبة أن تحدث، فردّ عليه قابيين بالسؤال، وهل كنتُ حارساً لامرأتك، أقودها مربوطة إليّ بحبل كما لو أنها نعجة، فقال نوح، لم أقل ذلك، ولكنها كانت تنام معك، وكان يمكن لك أن تنتبه إلى شيء، نومي ثقيل. لم يمض الحديث بينهما إلى ما هو أبعد من ذلك، والحقيقة أنه لا يمكن تحميل قابيين مسؤولية أن المرأة قد نهضت كي تذهب للتبول خارجاً، في النسيم الليلي، وقد تكون عانت هناك من دوار، على سبيل المثال، وسقطت بعد ذلك في أحد المصارف واختفت في الماء. إنها شؤون القدر. كان مستوى البحر الشاسع الذي يغطي الأرض لا يزال ينخفض، ولكن لم ترفع بعد قمة أي جبل رأسها لتقول، إنني هنا، اسمي آرارات وأنا موجود في تركية. وبطريقة أو بأخرى كانت الرحلة العظيمة تقترب من نهايتها، وقد حان وقت البدء بتهيئة الخاتمة، النزول إلى البر أو ما يجب أن يحدث. سام وامرأته سقطا في البحر في اليوم نفسه في ظروف ظلت بلا تفسير، وحدث الشيء نفسه لأرملة يافث التي كانت قد نامت في العشية في فراش قابيين. والآن، صار نوح يصرخ وهو يشد شعره بيأس مطلق، فقد ضاع كل شيء، فمن دون النساء اللاتي يُلقحن لن توجد حياة ولا بشرية، كان من الأفضل لنا أن نرضى بما كان لدينا وكنا نعرفه، وألح مُضَيَّعاً في الألم، بأي وجه سأمثل أمام السيد بهذه السفينة الممتلئة بحيوانات، وما الذي سأفعله أنا،

وكيف سأعيش بقية حياتي، فقال له قايين ألقِ بنفسك من هنا، ولن يأتي أي ملاك ليتلقاك بين ذراعيه. رنةٌ في صوته وهو يقول ذلك جعلت نوح يستيقظ على الحقيقة، لقد كنتَ أنت، قال مؤكداً، أجل، كنتُ أنا، أجابه قايين، ولكنني لن ألمسك أنت، لأنك ستموت بيديك نفسيهما، فسأله نوح، والإله، ماذا سيقول الإله، غادر باطمئنان، فسوف أتولى أنا أمر الإله. خطا نوح الاثنتي عشرة خطوة التي تفصله عن الحافة، ودون التلفظ بكلمة واحدة، ترك جسده يسقط.

في اليوم التالي رست سفينة نوح على الأرض. عندئذ سُمع صوت الإله، نوح، يا نوح، اخرج من الفلك مع امرأتك وبنيك ونساء بنيك، وأَخرج كذلك من الفلك الحيوانات التي معك من كل جنس، الطيور، والبهائم، وجميع الزواحف التي تدب على الأرض، لتنتشر في كل مكان وتثمر وتتكاثر. ساد صمت، وبعد ذلك فُتح باب الفلك ببطء وبدأت الحيوانات بالخروج. راحت تخرج وتخرج دون أن تنتهي من الخروج، بعضها كبير مثل الفيل وفرس النهر، وأخرى صغيرة مثل السحلية والجدجد، وأخرى متوسطة الحجم مثل العنزة والنعجة. وعندما ظهرت السلاحف، وكانت الأخيرة، بطيئة وهادئة كما هي طبيعتها، عاود الإله النداء، نوح، يا نوح، لماذا لا تخرج. كان قايين يخرج من داخل الفلك المظلم، وظهر عند عتبة البوابة الكبيرة، فسأله السيد، أين

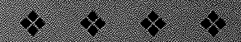
هو نوح وأهله، وأجاب قايين، إنهم هناك، ميتون، أتقول إنهم ميتون، كيف، لماذا، باستثناء نوح الذي أغرق نفسه بمشيئته الحرة، قمت أنا بقتل الآخرين، كيف تجرأت أيها القاتل على معارضة مشروعي، أهكذا تحمدني على إنقاذ حياتك حين قتلتَ هابيل، سأله السيد، فقال قايين، كان لابد أن يأتي اليوم الذي يضعك فيه أحدهم أمام وجهك الحقيقي، البشرية الجديدة التي أعلنتُ عنها إذاً، كانت هناك واحدة، ولن يكون ثمة أخرى يفتقدها أحد، أنت يا قايين الخبيث، أنت البغيض قاتل أخيه، لستُ خبيثاً ولا بغيضاً مثلك، تذكر أطفال سدوم. ساد صمت عظيم. بعد ذلك قال قايين، يمكنك الآن أن تقتلني، لا أستطيع، فكلمة الإله لا تراجع عنها، سوف تموت ميتة طبيعية وستأتي الطيور الجوارح وتلتهم لحمك، أجل، بعد أن تكون أنت قد التهمت الروح. لم يكن سماع جواب الإله ممكناً، وضاع كذلك ما قاله قايين، من المنطقي أن يكون كل منهما قد أظهر حججه للآخر مرة ومرات كثيرة، وإن يكن الشيء الوحيد المعروف بصورة يقينية هو أنهما واصلا الجدال ومازالا يتجادلان إلى الآن. لقد انتهت القصة، ولم يعد هناك المزيد لروايته.



يا لتعاستك ياحواء ، بداية سيئة تبدئين ، ومصيراً حزيناً ستلقين ، كان عليك أن تفكري في الأمر قبل الإقدام عليه ، أما أنت يا آدم ، فالأرض ملعونة بسببك .



وعلى الرغم من كل شيء ، فإن هذا الإنسان المطارد الهائم على وجهه ، الملاحق بخطواته نفسها ، هذا الملعون ، قاتل الأخ ، كانت لديه مبادئ طيبة لا تتوافر إلا لقليلين .



بعد خمسين سنة ويوم واحد من تلك المداخلة الجراحية الموفقة التي بدأت معها حقبة جديدة من جمالية الجسد البشري تحت الشعار المتساهل بأن كل شيء فيه قابل للتحسين ، وقعت الكارثة .

دال للنشر والتوزيع